الباب الثاني

الفصل الأول

النظام الإداري

obeikandl.com

obeikandl.com

التقسيمات الإدارية

ليست لدينا معلومات واضحة عن التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في الشام في الفترة السابقة للفتح الإسلامي، ذلك أن الشام تعرّضت لاجتياح الفرس، فوصل كسرى أبرويز إلى القدس، كبرى مدن فلسطين، سنة ٦١٥ م ثم تابع زحفه إلى مصر واستولى على الاسكندرية عاصمة مصر سنة ٦١٧ م[١]، وبدا وكأن الفرس سيسترجعون أمجاد الامبراطورية الأخمينية، ولكن الفشل والهزيمة مالبثا طويلا حتى أخذا بالزحف على الفرس الذين كتب لهم في هذه الحقبة من التاريخ أن يذوقوا مرارة ماذاقه البيزنطيون من قبل، ففي خلال السنين التي كانت فيها قبائل السلاف والأفاريين تزحف على البلقان، والفرس يسيطرون على المقاطعات الشرقية من الامبراطورية، كان هرقل يقوم باصلاحاته الجذرية البعيدة المدى، التي أدخلت دماً جديداً وحيوية جديدة إلى جسد الامبراطورية، فقد عمد إلى تقسيم المقاطعات إلى وحدات إدارية جديدة تختلف في الأسس عن تقسيم ديوكليسيان، الذي لم يعد يصلح لحاجات الامبراطورية وظروفها الجديدة[٢]. وقسمت أراضي آسيا الصغرى التي لم تحتلها قوى أجنبية إلى مناطق عسكرية كبيرة وضعت تحت إدارة قواد عسكريين لهم صلاحيات الحكام الإداريين الذين كانوا يديرون المقاطعات في السابق، ويطلق عليهم اسم ستراتيجوس

---

١) بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة فريد حديد، ص ٦٦.

٢) نبيه عاقل، الامبراطورية البيزنطية، دمشق ١٩٦٩، ص ٨٧.

Strategus . وهكذا كان طابع الحكم الجديد طابعاً عسكرياً عنصره الأساسي إقامة وحدات عسكرية مستقرة في آسيا الصغرى التي كانت الأخطار تتهددها[٣]، وكان الجنود في هذه المناطق يمنحون اقطاعات من الأرض تصبح ملكهم ولهم حق توريثها إلى أبنائهم إذا انخرط أبناؤهم في سلك الجندية[٤].

إذا كان هرقل قد طبق هذا التنظيم في آسيا الصغرى، فانه ليس لدنيا إشارات إلى أنه عمد إلى تطبيق هذا التنظيم في الشام ومصر، اثر استعادتهما بموجب المعاهدة التي عقدها هرقل مع الكسرى قياذ سنة ٦٢٨ م/٧ هـ، إذ لم تأت سنة ٦٣٤ م/١٣ هـ حتى كان العرب يشقون طريقهم في قلب ممتلكات الامبراطورية البيزنطية، هذه الممتلكات التي استرجعت حديثاً، وقد رأينا أن فتح دمشق ومعركة اليرموك التي انهزم فيها الجيش البيزنطي هزيمة منكرة أوقعت بلاد الشام بيد العرب، إذ لم تلبث المدن أن استسلمت للعرب بما في ذلك أنطاكية العاصمة، دونما قتال شديد، وكانت المقاومة في فلسطين أكثر عنفاً، ولكن القدس لم تلبث أن استسلمت وفتحت أبوابها للخليفة عمر ابن الخطاب.

عمد الخليفة عمر إلى تقسيم الشام إلى أجناد أربعة، وهي جند حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين، وهذه الأجناد الإسلامية، أقاليم استقرّت فيها فرق من الجيش إسلامية لحمايتها وقبض أعطياتهم منها[٥].

هذه الأجناد كانت شبيهة بنظام البنود البيزنطي الذي بدأ هرقل بتطبيقه كما رأينا، ولم تخف على المسعودي أوجه الشبه بين البنود البيزنطية والأجناد الإسلامية حيث يقول: أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسماً، أعمال مفردة تسمى بنود كما يقال أجناد الشام، كجند فلسطين، وجند الأردن، وجند حمص، غير أن بنود الروم أوسع من

(٣) المرجع السابق ص ٨٧، ستيف رونسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١، ص ٩٧.

(٤) نبيه عاقل، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

هذه الأجناد[٦]. كما أن معظم الجغرافيين المسلمين كاليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ) وابن رسته (ت ٢٩٠ هـ) والاصطخري (ت ٣٢١ هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ) وحتى ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) يستخدمون كلمة الأجناد، بينما نجد ابن خرداذبه (ت ٢٧٢ هـ) لا يستخدم كلمة الجند ويذكر فقط كور الشام، كورة دمشق، كورة حمص، ... الخ، ويشير ياقوت الحموي إلى أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام[٧].

ولقد أوجبت الضرورات العسكرية على ما أعتقد تقسيم الشام إلى هذه الأجناد، فالساحل الشامي طويل، والشام كانت لا تزال مهددة براً وبحراً من قبل البيزنطيين، فكان لا بد من ايجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له، «فقد كانت عَرقَة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة ويتصرف بها نواب من يلي جند دمشق أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس إلى أن ملك العبيديون[٨]»، أما اللاذقية وجبلة وبانياس وانطرطوس فكانت تابعة لجند حمص[٩]، وتبعت صور وعكا جند الأردن[١٠]، وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة جند فلسطين[١١].

ونلاحظ أن المقاطعات التي انقسمت إليها الشام في العهد البيزنطي كان منها مقاطعات ساحلية وأخرى داخلية وأنها أكثر مطابقة للتقسيمات الجغرافية للمنطقة، ونظراً لاعتماد بيزنطة على أسطولها فان أهم المراكز في العهد البيزنطي كانت المدن الساحلية، كأنطاكية وصور وقيسارية، أما أجناد الشام، فكان كل جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية، بحيث تستطيع كل منطقة أن تعتمد على الأخرى حربياً

---

(٦) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ١٠٥.

(٧) ياقوت الحموي، ج ١ ص ٣٨.

(٨) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠١، ١٠٦، اليعقوبي، البلدان ص ٣٢٧، ابن خرداذبه ص ٧٧.

(٩) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٤، ابن الفقيه، البلدان، ص ١١٠، ابن خرداذبه، ص ٧٥.

(١٠) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧، ابن شداد، ص ١٢٣.

(١١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٤، اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٩، ابن الفقيه، البلدان، ص ١٠٣.

واقتصادياً، وبما أنه لم يكن للعرب في البدء أسطول قادر على حماية السواحل، فان مراكز الأجناد كلها كانت مدناً داخلية، حمص، دمشق، طبرية، اللد، وبقيت اللد قصبة جند فلسطين حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ولّى أخاه سليمان جند فلسطين، فابتنى مدينة الرملة[١٢] ومصّرها واختط مسجدها، فصارت القصبة ونقل إليها الناس من لُدّ وأمرهم بهدم منازلهم فيها والبنيان بالرملة[١٣]، وبقيت الرملة قصبة لجند فلسطين حتى زمن ابن حوقل[١٤].

كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية براً وبحراً، أن اتجهوا إلى جعل قنسرين جنداً مستقلاً منفصلاً عن جند حمص، وكانت قنسرين وحلب مضافتين إلى حمص، فأصبحت حلب مضافة إلى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية[١٥]، ثم تدرجت حلب في العمارة وقنسرين في الخراب حتى صارت مضافة إلى حلب في أيام بني العباس[١٦]، واختلف المؤرخون فيما إذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد[١٧]، ويذكر البلاذري أن قنسرين وكورها كانت مضمومة إلى حمص، حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً[١٨]، فلما استخلف أمير المؤمنين هارون الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصير ذلك جنداً واحداً، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وأنطاكية وسماها العواصم[١٩]، بينما يذكر ابن الأثير أن معاوية هو الذي جند قنسرين ممن أتاه من أهل العراقين أيام علي، وإنما كانت قنسرين رستاقا من رساتيق حمص[٢٠].

---

(١٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤ ص ٩٩.

(١٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٩٣.

(١٤) ابن حوقل، صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الأول، ليدن ١٩٣١م ص ١٧١.

(١٥) ابن رستة، ص ١٠٧، الطبري، ج ٤ ص ١٦١، ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ٤١.

(١٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٤١.

(١٧) المصدر السابق، ص ٤١.

(١٨) البلاذري، فتوح، ص ١٣٨.

(١٩) البلاذري، ص ١٣٨، ابن الفقيه، البلدان، ص ١١٠.

(٢٠) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص ٣١، والرستاق اسم فارسي، ويعنون كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة والكوفة وبغداد.

وكانت الجزيرة تابعة إدارياً في بادىء الأمر لوالي حمص[٢١]، فلما أصبحت قنسرين جنداً أصبحت الجزيرة تابعة لجند قنسرين، وقد دفعت المتطلبات العسكرية عبد الملك بن مروان إلى فصل الجزيرة عن قنسرين، ويقال أنه فعل ذلك بناء على طلب محمد بن مروان فجندّها عبد الملك، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها[٢٢]، ثم ضم عبد الملك لمحمد أذربيجان وأرمينية وأحياناً الموصل[٢٣].

وإذا اعتمدنا الروايات التي ذكرها المؤرخون، وقارناها بما ذكر عند الجغرافيين الأوائل، لوجدنا أن جند دمشق كان أكبر الأجناد لاسيما بعد جعل قنسرين جنداً منفصلاً عن حمص، أما أصغر الأجناد فكان جند الأردن، ولذلك فان معظم القصور الأموية في البادية والمتواجدة في شرقي الأردن حالياً إنما بنيت في نطاق جند دمشق[٢٤]. وكان كل جند من الأجناد يضم عدداً من الكور[٢٥]، والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة[٢٦]، ولذلك نجد الجغرافيين عندما يتكلمون عن الكور التي يتألف منها جند دمشق يذكرون كورة دمشق وقصبتها دمشق، وكورة البقاع ومدينتها بعلبك، وكورة حوران ومدينتها بصرى... الخ.

وإذا كانت الضرورات العسكرية قد أوجبت جعل قنسرين جنداً منفصلاً، وأوجبت فصل الجزيرة عن قنسرين، فان هذه الضرورات هي التي أجبرت بيزنطة أيضاً أن تعدل تقسيمها الإداري لمواجهة احتياجاتها الدفاعية ولا سيما المشروعات الإسلامية

---

(٢١) البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.

(٢٢) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢٣) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٩٣.

(٢٤) من أجل معلومات أوفى عن أجناد الشام وكورها يمكن العودة إلى كتاب الإدارة في العصر الأموي، ص ٣٩ ــ ٤٢. الجزيرة، ٤٤ ــ ٤٨.

(٢٥) يرى جاستون فيت Gaston Wiet أن لفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني كورة التي لم تكن شيئاً آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطي باسم بجارشي Pagarchie وكان على رأس الكورة صاحب الكورة، وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بجاركوس Pjayapxos أما ياقوت الحموي، فيذكر نقلاً عن حمزة الأصفهاني أن الكورة اسم فارسي بحت يقع على قسم من الاستان وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان، فالكورة والاستان واحدة (Wiet, L'Egypte Musulmane, Precise de L'Histoire d'Egypt t.II. P.27.).

(٢٦) ياقوت الحموي، ج ١، ص ٣٦، ٣٧.

الكبرى لفتح القسطنطينية[٢٧]، إذ أوجد البيزنطيون البند الأناضولي Anatolikon إلى جانب البند الأرمني، Armeniakon الذي تكون سنة ٦٢٩ م لمواجهة خطر الغزو الفارسي، وقد قلل من شأنه فتح العرب لملطية، ويشغل بند أرمينية والأناضول كل القسم الأوسط من آسيا الصغرى، من حدود كيليكيا شرقاً إلى بحر ايجة غرباً، وكان سداً منيعاً للامبراطورية أمام هجمات العرب[٢٨]. وأوجد البيزنطيون في القرن السابع كذلك بند الأويسكيون Opsikion[٢٩]، واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطوري لمواجهتها لشواطيء القسطنطينية، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة عن العاصمة[٣٠]، وكان هذا الاقليم الحربي يمتد من بحر مرمرة إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى، وأقامت في جهاته الساحلية فرق بحرية Peralic Themes لصد سفن المهاجمين عن العاصمة على حين استقر في جهاته الداخلية فرق من الخيالة Cavaliarli لعرقلة الزحف البري[٣١]، وفي القرن الثامن الميلادي في عهد الأسرة الايسورية وبعد آخر حملة كبرى على العاصمة البيزنطية عمد ليون الثالث إلى اقتطاع الجانب الغربي من البند الأناضولي الواسع المدى ليشكل بند تراقيا[٣٢]، كما أوجد بند الدوديكانيز Dodecanese، وإذا كانت العوامل العسكرية هي التي فرضت على ليون خلق بنود أقل امتداداً وأوسع حماية، فان هذه العوامل العسكرية كانت تدعمها اعتبارات سياسية. فقد أدرك ليون الثالث بناء على تجربته الخاصة الخطر الذي قد ينشأ من جعل بنود واسعة المدى تحت سيطرة الحكام العسكريين Strategus والاغراءات التي قد تدفعهم إلى العرش الامبراطوري[٣٣]، وتابع قسطنطين الخامس سياسة والده

---

(٢٧) E.B. The Byzantine Empire Vol. IV 'p. 524.

(٢٨) فتحي عثمان، الحدود الاسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، ج ١ ص ٩٦.

(٢٩) Ostrogorsky, History of The Byzantine State, Tr, 6y Joan Hussey, Oxford, 1956. P.II9.
رونسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٩٨.

(٣٠) ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٧.

(٣١) المصدر السابق، ص ١٧.

(٣٢) Ostrogorsky, OP. Cit. P.II9.

فحد من مساحة بند الأوبسيكيون وشكل بند البوكلري Bucellarian وبند الابتيماسيون Optimacian . وهكذا تم في عهد الأسرة الايسورية التنظيم الإداري الذي وضعت خطوطه الأولى في القرن السابع ، وعمد كل من ليون وابنه قسطنطين من بعده إلى انتقاء القادة القديرين المخلصين لشخصهم ولسياستهم وتعيينهم كحكام لهذه البنود ، كما أن القانون العسكري الذي يعود إلى عهد ليون إنما وضع ليؤمن لهؤلاء الحكام فرقاً عسكرية جيدة التدريب لا همّ لها سوى القتال ، ونهى بشدة انشغال الجند بالزراعة والتجارة[٣٤] ، وهذا ما كان عمر قد أمر به أمراء الأجناد بأن يتقدموا به إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ، وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون[٣٥] .

الموظفون الإداريون

١ ــ الخليفة : ليس الخليفة إلا رجلاً اختارته الأمة ليكون ممثلاً لها ويتولى الإشراف على أمورها وتدبير شؤونها ، والخليفة في نظر الإسلام ليس له أي صفات من صفات الألوهية ولو من بعيد ، وليس مقدساً ولا معصوماً في نظر المسلمين ، وليس له الحق وحده في بيان الدين وتفسير نصوصه ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الأمة بدينه وعدالته فولته أمورها يديرها بأمر الله وبمقتضى شريعته ، ولأنه كذلك لا يسمى خليفة الله بل خليفة رسول الله (صلعم) لأنه إنما يستخلف من يموت والله جل جلاله حي لا يموت ، ولهذا لما قيل لأبي بكر رضي الله عنه « يا خليفة الله[٣٦] » ، قال : « لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله[٣٧] » .

---

(٣٣) Bury. T.B. A History of The Later Roman Empire, London, 1889, PP. 343, 349.

(٣٤) The Cambridge Med. History Vol. IV PP. 3, 4.

(٣٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٦٢ .

(٣٦) نرى تعبير « خليفة الله » قد استعمل في مواضع مختلفة ، منها قول عثمان حينما دعي إلى الاستعفاء « أما أن أبرأ من خلافة الله فالقتل أحبّ إلي من ذلك » (شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ١٦٥ . ومنها ما ورد في الطبري من أن مروان بن محمد كتب إلى الوليد بن يزيد حين تولي الخلافة « أخبر أمير المؤمنين ــ أكرمه الله ــ أني عندما انتهى إلي من قيامه بولاية خلافة الله ، نهضت إلى منبري ... (الطبري ج ٣ ، ص ٢١٧ (وإذا كان الأخطل قد قال : (خليفة الله يستسقى به المطر ، فان أبا تمام قال للمعتصم :

خليفـــة الله جازى الله سعـــيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترهـــا تنـــال الا على جسر من التـــعب

(٣٧) د. محمد يوسف موسى ، نظام الحكم في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤م ، ص ٨٢ .

ولعل أبا بكر خليفة المسلمين الأول هو أول من حدّد البنية الأساسية للنظام السياسي الجديد ومعناه عندما خاطب المسلمين بقوله: «لابد لكم من رجل يلي أمركم، ويصلي بكم ويقاتل عدوكم[٣٨]»، فأوضح أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية أمور الدين والدنيا، كما أن أبا بكر بخطابه حدد سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييدها أيضاً بدستور الإسلام، وهو القرآن والسنة، وأظهر أهمية الجهاد لاعلاء كلمة الله وضرورة إقامة العدل والسير على الطريق القويم وذلك في قوله: «أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحدكم الجهاد في سبيل الله، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني مأأطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم[٣٩]».

بالرغم من أن أبا بكر حدد سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييدها أيضاً بدستور الإسلام وهو القرآن والسنة، إلا أن الخليفة لم يكن مسؤولاً قانونياً تجاه أي شخص أو مؤسسة دنيوية، ولذلك كانت سلطاته واسعة، وصحيح أن الخلفاء، ولا سيما عمر كانوا يستشيرون في غالب الأحيان بعض الناس فيما يعرض لهم، إلا أنهم لم يكونوا ملزمين بقبول آراء المستشارين فبمقدورهم أن يرفضوها، أو يقبلوها حرفياً أو معدّلة، وبمقدورهم عند اختلاف آراء المستشارين اختيار ما يشاؤون من الآراء، وعليهم دون المستشارين، تحمل مسؤولية هذه القرارات، ولا ننسى أن اختيار هؤلاء المستشارين يعتمد على رغبة الخليفة وإرادته لا على قانون معترف به، فالخليفة يستطيع أن يستشير من يشاء، متى شاء، وكيف شاء.

وللخليفة باعتباره رئيساً للدولة والمهيمن على أزمة النظام الإداري حق اختيار من

---

(٣٨) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٥.

(٣٩) ابن هشام، ج ٤، ص ٣١١.

يشاء لتصريف شؤون الإدارة والحكم، وهو المسؤول عن أعمال من يختارهم لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه، وقد عمد عمر بن الخطاب رغبة منه باحلال الحق والعدل في كل منطقة دخل المدّ الإسلامي إليها إلى التدخل في شؤون كل ولاية لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً أن المسؤولية أولاً وأخيراً هي مسؤولية الخليفة[٤٠]، وقد ظهر ذلك بوضوح في الولاة الذين كان ينتقيهم وفي مراقبته الشديدة لهم ومحاسبته إياهم وفي ربط أكبر عدد من الولاة مباشرة به[٤١]، ولم يكن عمر يعين الولاة فقط وإنما كان يعين عمّال الخراج وكتّاب الدواوين والقضاة في الأمصار، وهؤلاء جميعاً كانوا مسؤولين عن أعمالهم مباشرة تجاه الخليفة الذي كان يراقبهم مراقبة شديدة، فكان لا يخفى عليه شيء في عمله[٤٢]، وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد[٤٣]. كما أنه كان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة، «وليحجزهم بذلك عن الرعية، وليكون لشكاة الرعية وقتاً وغاية ينهونها فيه إليه[٤٤]». ولذلك كان الولاة والعمال في عهد عمر يحسبون حساباً للخليفة في كل اجراء يتخذونه، وفي كل خطوة يخطونها، وكان معاوية بالرغم من ثقة عمر به وبحسن سياسته وحكمته ودهائه «أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه[٤٥]».

لم يستطع الخليفة عثمان أن يسير على نهج عمر بن الخطاب كما أنه وقع في سنوات خلافته الأخيرة تحت تأثير أفراد عائلته الذين تولوا إدارة الولايات الكبرى في الدولة، فقد جمع الجزيرة والشام لمعاوية ومصر وبرقة وطرابلس لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، والبصرة وخراسان وسجستان لعبد الله بن عامر، والكوفة للوليد بن عقبة ثم

(٤٠) الطبري، ج ٤ ص ٢١٠، ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ١٣٩٤ هـ، ص ١٣٢.
(٤١) الطبري، ج ٤، ص ١٤٤، ٢٤١، البلاذري، فتوح ص ٣٢٢، ٣٢٧، خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٥٦، ١٥٨، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٨، ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٣، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٩.
(٤٢) الطبري، ج ٤، ص ٦٧.
(٤٣) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، الطبعة الأولى، ١٩٧٠ م بيروت، ص ١٦٨.
(٤٤) الطبري، ج ٤، ص ١٦٥، ١٦٦.
(٤٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٣٨.

لسعيد بن العاص[٤٦]، وخوّلهم سلطات واسعة، وهذا مما مهد للإدارة اللامركزية في العصر الأموي، ولكنه كان سبباً من الأسباب التي أدّت إلى الفتنة ومقتل الخليفة عثمان، ولما كانت الفتن قد استغرقت أيام الخليفة علي أكثر من التنظيم والإدارة، فقد الاستقرار في البلاد «بالرغم من أن هديه كان هدى أصحابه الثلاثة من قبله، وما خالف علي عمر ولا غيّر شيئاً مما صنع[٤٧]».

بمقتل الخليفة علي وتنازل الحسن، انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ، الذي تعارف المؤرخون على تسميته بعام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد طول نزاع، وتصبح الشام هي الولاية المركزية، ويتخذ معاوية دمشق عاصمة للدولة الإسلامية، بسبب موقعها المتوسط، وتقاليدها الحضارية[٤٨]، وبقيت دمشق العاصمة الرسمية للدولة الإسلامية حتى خلافة مروان بن محمد الذي نقل بيوت الأموال والخزائن إلى الجزيرة[٤٩]. وقد دفن كل من معاوية ويزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك بدمشق[٥٠]، أما سليمان فقد دفن بدابق من أرض قنسرين[٥١]،

---

(٤٦) البلاذري، فتوح ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩، ابن سعد، الطبقات ج ٧، قسم ٢، ص ١٢٨، خليفة ابن خياط، ج ١، ص ١٩٤.

(٤٧) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م، ج ٢، ص ١٢٥.

(٤٨) يبدو أن دمشق في عهد المقدسي كانت لا تزال تحمل آثار بني أمية، ووصفه لدمشق يلقي بعض الضوء على وضعها آنذاك، إذ يقول: دمشق هي مصر الشام، ودار الملك أيام بني أمية وثم قصورهم وآثارهم، بنيانهم خشب وطين، أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف، وهو بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار، وكثرت به الثمار مع رخص أسعار وثلج وأضداد، لاترى أحسن من حماماتها، ولا أعجب من فوّاراتها ولا أحزم من أهلها (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٥٦، ١٥٧).

(٤٩) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٨.

(٥٠) الفقيه أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء، الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ص ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١، ٥٣، ٨٩، ٩١. القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة ــ الكويت، ١٩٦٤م، ج ١ ص ١١١، ١١٧.

(٥١) النويري، نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٣٥.

بينما دفن عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أرض حمص[٥٢]، ودفن هشام بن عبد الملك بالرصافة[٥٣].

ومن المؤكد أن معاوية أقام في دمشق طيلة امارته وخلافته، ولم يكن يغادرها إلاّ لأسباب قاهرة، وكذلك فعل عبد الملك، أما بقية الخلفاء، فيظهر أنهم كانوا يقيمون في أماكن مختلفة، وان بقيت دمشق هي المركز الذي تتم فيه بيعة الخلفاء وما يتبع ذلك من مراسيم[٥٤].

إن نجاح معاوية وتنازل الحسن عن الخلافة كان إقراراً بمبدأ الأمر الواقع المستند إلى القوة في اختيار الخليفة، هذا المبدأ الذي عبر عنه معاوية عندما قدم المدينة عام الجماعة، وتلقاه رجال قريش مهنئين، فأجابهم، «أما بعد فإني والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة[٥٥]». وصارت العلاقة تقوم على مؤاكلة حسنة ومشاعر جميلة قوامها قول الخليفة لرجال قريش: «وان لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فاقبلوا مني بعضه[٥٦]». فلما كان عهد عبد الملك الذي واجه مشاكل كثيرة حتى استقامت له الأمور وقضى على ثورة عبد الله بن الزبير، فإنه رأى أن المؤاكلة الحسنة لا مكان لها في سياسته وأنه لا تداوى أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف[٥٧].

---

(٥٢) ابن أبي السرور، بلغة الظرفاء، ص ٢٥، الطبري، ج ٦، ص ٥٦٥.

(٥٣) المصدر السابق، ص ٢٦، الطبري، ج ٧ ص ٢٠٠.

(٥٤) هناك إشارات واضحة إلى أن بيعة يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، قد تمت في دمشق، وكذلك سليمان لأنه هو الذي صلّى على أخيه، فلا شك أنه بويع في دمشق، وبالرغم من أن البريد جاء بشارتي الخلافة، العصا والخاتم، إلى هشام وهو بالزيتونة فانه لم يلبث أن توجه إلى الرصافة ثم ركب من الرصافة حتى أتى دمشق، فبويع بها في اليوم الأول من رمضان سنة ١٠٥ هـ. (الطبري، ج ٧، ص ٢٥، العيون والحدائق، ص ٨٢، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، النجف ١٩٦٩ م ص ٢٤٧).

(٥٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٨١، ٨٢.

(٥٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٢.

(٥٧) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٠١، ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة، ج ٦ ص ٦٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٣٩، وفي خطاب لعبد الملك، أما انه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون ويؤكلون واني والله لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف.

ونظراً لوصول معاوية إلى منصب الخلافة بالقوة، فإنه لم يبايع لمعاوية أحد إلا أخذ عليه الأيمان، فكان أول شخص استحلف على بيعته[٥٨]، كما أن يزيد بن معاوية في كتابه إلى عامله على المدينة، طلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ويحلفون بصدقة أموالهم غير عشرها، وجزية رقيقهم وطلاق نسائهم، وبالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم[٥٩]، ولما آل الأمر إلى عبد الملك وأقام الحجاج بن يوسف على إمارة العراق وعمد إلى أخذ البيعة لعبد الملك في العراق، رتب أيمانا مغلظة تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعتاق، والايمان المحرجات، واشتهر بين الفقهاء بايمان البيعة، واطّرد أمرها في الدولة العباسية، وجرى مصطلحهم على هذا الأسلوب[٦٠].

وكان معاوية كذلك أول من لجأ إلى العهد بعد أبي بكر ولكن بمفهوم جديد، إذ أن أبا بكر عندما عهد بالخلافة إلى عمر فعل ذلك لأنه وجده يتمتع بجميع الصفات والميزات التي تؤهله ليكون خليفة للمسلمين، وليس لصداقة أو قرابة، بينما عهد معاوية بالخلافة لابنه لأنه أراد أن يحفظ الخلافة في آل سفيان، كما أنه اتبع في نظام البيعة سبيلاً جديداً، إذ أنه أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته، وأصبح العهد بعد معاوية الطريقة المتبعة على الأغلب في تولي الخلافة[٦١]، فإما عهد إلى الولد أو إلى أحد أفراد الأسرة لئلا يخرج الحكم من أيديها، بل أن الحيطة في بقاء الخلافة بيد الأسرة الواحدة حملت مروان بن الحكم على أن يبايع حال حياته لولديه عبد الملك وعبد العزيز[٦٢]، ومضى عبد الملك

---

(٥٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٥٩) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٧٥.

(٦٠) عبد الرحمن بن زيدان، كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦٢، الباب الثاني من المقالة الخامسة، ص ٢٨، ٢٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩، القلقشندي، مآثر الأناقة، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٦١) سار خلفاء بني أمية جميعاً على اختيار أولياء العهد في حياتهم، فكلهم كان مختاراً من سلفه، ماعدا رأس هذه الدولة معاوية، ومروان بن الحكم، ويزيد بن الوليد، ومروان بن محمد، هؤلاء أخذوا الخلافة بالقوة.

(٦٢) الطبري، ج ٦، ص ٦١.

على هذه السنة فعهد إلى ابنه الوليد وإلى أخيه سليمان من بعده، وتابع سليمان بن عبد الملك هذه الطريقة، فعهد إلى عمر بن عبد العزيز وإلى يزيد بن عبد الملك من بعده. واتبع الخلفاء طريقة معاوية في أخذ البيعة لولاة عهودهم، في حياتهم، وكان الخليفة عندما يقرر من سيكون ولي عهده يرسل بالكتب إلى عماله لكي تُقرأ هذه الكتب على الناس، ثم يبايع الناس ويأخذون عليهم العهد والميثاق[٦٣]. فإذا مات الخليفة حددت البيعة ثانية تأكيداً للعهد، فكانت البيعة تأتي من الآفاق ويكتب إليه العمال وتجيء الوفود[٦٤].

وهكذا نرى أن الخلافة في عهد بني أمية قد أصبحت وراثية، ورافق ذلك شارات وعلامات بدلاً من البساطة التي كانت شعار الخلفاء الراشدين، فقد اتخذ معاوية المقصورة في المسجد[٦٥]، ولكنه اتخذها حين طعنه الخارجي[٦٦]، وأقام الحرس والشرط والبوابين وأرخى الستور[٦٧]، ومشي بين يديه بالحراب وجلس على السرير والناس تحته[٦٨]، ولكن ابن خلدون يضيف إلى ذلك، «أنه استأذن الناس وقال لهم: اني قد بدنت، فأذنوا له، فاتخذه واتبعه الملوك الإسلاميون فيه[٦٩]».

---

(٦٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢١٨، ٢٢٣.

(٦٤) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢١٦.

(٦٥) اليعقوبي، تاريخ ج ٢، ص ٢٣٢، ابن قتيبة، المعارف، الطبعة الثامنة، ص ٢٤١، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩.

(٦٦) ابن خلدون، المقدمة، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧١م. ج ١ ص ٢٢٤.

(٦٧) يقول الجاحظ بأن خلفاء بني أمية تأثروا بقوانين الملك والمملكة عند العجم فيما يتعلق بترتيب الخاصة، والعامة، وسياسة الرعية، والزام كل طبقة حظها، وأن كل ملوك الأعاجم كانت تحتجب عن الندماء بستارة، وكذلك فعل معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، إذ كان بينهم وبين الندماء ستارة، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة، إذ طرب للمغني والتذه، أما يزيد بن عبد الملك، فقد أفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهو، فأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه، والرد عليه، ولم يكن الوليد بن يزيد بأفضل منه، أما عمر بن عبد العزيز فلم يكن يسمع الغناء منذ أفضت الخلافة إليه، إلى أن فارق الدنيا، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل. (الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ٣١، ٣٥، ٣٩).

(٦٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٦٩) ابن خلدون، المقدمة، ج ١ ص ٢١٧.

وبالرغم من أن القلقشندي يذكر في كتابه صبح الأعشى أن معاوية كان أول من نهى عن الكلام بحضرته، وكان الناس قبل ذلك يردون على الخليفة ويعترضونه فيما يقول[٧٠]، فانه يذكر في كتابه مآثر الأناقة، أن عبد الملك بن مروان كان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخليفة وأن الوليد بن عبد الملك هو أول من أقام ناموس الملك ومنع من دعاء الخليفة باسمه ومراجعته في الكلام[٧١]. وأعتقد أن ما يذكره القلقشندي في مآثر الأناقة أدق، لأن الروايات المتعلقة بمعاوية كثيراً ما تشير إلى أن الناس كانوا يراجعونه فيما يقول ويعترضون عليه فيما يفعل.

ومع أن معاوية وخلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز يتهمون باهتمامهم بالمصالح السياسية، وتقديمها على الاعتبارات الدينية، وقول ابن طباطبا: «أن معاوية كان مصروف الهمة إلى تدبير أمور الدنيا، يهون عليه كل شيء إذا انتظم أمر الملك[٧٢]»، فان خلفاء بني أمية كانوا يولون إمامة الصلاة اهتمامهم، فخلفاء بني أمية كالخلفاء الراشدين كانوا يؤمون المسلمين في المساجد العظيمة في الصلوات الخمس والجمعة، والعيدين والخسوفين والاستسقاء، ولا يقلدونها لغيرهم من الناس استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها، حتى أن عبد الملك أمر حاجبه ألا يحجب عنه ثلاثة، المؤذن للصلاة، فانه داعي الله، وصاحب البريد فان في تأخيره فساد القاصية، وصاحب الطعام لئلا يفسد[٧٣].

وكخليفة للمسلمين أصبح لمعاوية الحق في اختيار من يشاء لإمارة الأمصار، فهو الذي يعينهم أو يعزلهم متى شاء، وهو المسؤول عن أعمالهم فهم إذاً خاضعون له ويعملون باسمه، وما داموا في الحكم فكل تمرد أو عصيان عليهم يعتبر وكأنه موجه ضد الخليفة، وقد كان الخليفة مسؤولاً عن تنفيذ القانون في كافة أنحاء الدولة الإسلامية، ولكن نظراً لسعتها ولصعوبة المواصلات أصبح تنفيذ القانون والاشراف على الشؤون

---

(٧٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ٤١٤.

(٧١) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج ٣، ص ٣٤٤، ٣٤٦.

(٧٢) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٧٩.

(٧٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٧٣٦، ٧٧٥.

الإدارية في الأمصار بيد الأمير الذي يتمتع خلال اشغاله منصبه بشبه استقلال ذاتي[٧٤]، إلا أنه مسؤول تجاه الخليفة ويعمل باسمه[٧٥]، إلاّ أنه لم يكن له الصلاحية في أن يسير إلى الخليفة ويترك أمر ولايته إلاّ بإذنه[٧٦].

بالإضافة إلى المشاكل المتعلقة بأمور إدارة الدولة، كان الخلفاء يخصصون أوقاتاً للنظر في حوائج الرعية، فكان معاوية يخرج إلى المسجد ويطلب من غلامه أن يضع له كرسياً يسند ظهره إلى المقصورة، فيقوم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فينظر في أمرهم[٧٧]، ثم يخصص وقتاً لأشراف الناس الذين يرفعون حوائج من لا يستطيع الوصول إلى الخليفة[٧٨].

وفاق عمر بن عبد العزيز معاوية في الاهتمام بالمظالم، فكان يقعد لحوائج الرعية يومه، فإذا أمسى وعليه بقية من حوائجه وصله بليلته[٧٩]؛ أما عبد الملك فقد أفرد للظلامات يوماً معيناً[٨٠] كل أسبوع، بينما عمد هشام بن عبد الملك إلى تخصيص ستين يوماً وليلة للناس لا يهتم فيها بشيء سوى رد المظالم والأخذ على يد الظالم من جميع الناس وأطراف البلاد، فكان يصل إلى مخاطبته بذلك الموضع راعي السوام، والأمة السوداء فما دونهما، وكان يوكل رجالاً ذوي أدب وعقل بإدناء الضعفاء والنساء واليتامى منه ويأمرهم باقصاء أهل القوة والكفاية عنه حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره[٨١]. وبالرغم من أنه كان لكل خليفة نهجه في النظر في المظالم وفي معاملته للناس، فان المسعودي يرى أن خلفاء بني أمية بالرغم من أنهم حاولوا أن يسيروا على هدى معاوية

---

(٧٤) عرف الفقهاء المسلمون في وقت متأخر هذا اللون من الإدارة اللامركزية للولايات بأنها إمارة استكفاء (الإدارة في العصر الأموي، ص ١٠٦).

(٧٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٤.

(٧٦) الطبري، ج ٧، ص ١٤٩.

(٧٧) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩، ٣٠.

(٧٨) المسعودي، ج ٣، ص ٣٠.

(٧٩) أبو يوسف، الخراج، ص ١٩.

(٨٠) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٧٨.

(٨١) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٠٧.

إلا أنهم «لم يدركوا خلقه ولا اتقانه للسياسة ولا التأني للأمور ولا مداراة الناس على منازلهم ورفقهم بهم على طبقاتهم[٨٢]».

٢ ــ الوزراء والمستشارون

لا ريب أن كلمة وزير عرفت قبل الإسلام، ذلك أنه من المسلّم به عند علماء اللغة العربية أن القرآن الكريم يمثل من الناحية اللغوية نهاية العصر الجاهلي[٨٣]. وقد وردت الكلمة فيه مرتين[٨٤]، أما في السنة النبوية وفي أقوال كبار الصحابة، فقد ورد لفظ الوزير، والوزارة والوزراء في مواضع متعددة وفي مناسبات مختلفة[٨٥]. ويتبين من دراستنا للنصوص أن الوزارة قد تغير مفهومها عن التحديد الذي ورد في القرآن الكريم. فالوزير في القرآن شريك في العمل وفي المسؤولية وفي كل شيء أما في أقوال الرسول فلم تعن إلاّ أن الوزير مستشار أو مشير، والفرق بينهما أن المستشار لايبدي رأيه إلاّ إذا سئل أما المشير فله أن يقول وان لم يطلب منه القول[٨٦].

---

(٨٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣١.

(٨٣) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والإسلام، دار النفائس، بيروت ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤م، ج ١، ص ٤١١.

(٨٤) في سورة طه، الآية ٢٩ ومابعدها في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: «واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري»، وفي سورة الفرقان الآية ٣٥، في قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً».

(٨٥) عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله (صلعم) قال: لي وزيران من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ووزيران من أهل الأرض، أبو بكر وعمر، وعن أنس بن مالك أن رسول الله (صلعم) قال: وزيراي من أهل السماء جبرائيل وميكائيل، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر، (ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ٤٧) وفي خبر رواه الطبري أن زيد بن ثابت أجاب خطيب بني تميم بحضور الرسول (صلعم) فكان مما قال: «نحن أنصار الله ووزراء رسوله» (الطبري ج ٣، ص ١١٦) وكان اجتماع السقيفة يوم وفاة الرسول (صلعم) فكان مما قاله أبو بكر فيه مخاطباً الأنصار: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور (الطبري ج ٣ ص ٢٢٠) وفي كلام لعلي بعد مقتل عثمان عندما عرض الصحابة الموجودون في المدينة الامامة على علي، قال: «التمسوا غيري، فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً» (الطبري ج ٤ ص ٤١٧)، وهناك أمثلة أخرى كثيرة.

(٨٦) ظافر القاسمي، المصدر السابق، ص ٤١٥.

وبالرغم من أن أبا بكر قد أكّد على أنه « لا فضل لامير على مامور كالخوصة إذا شقت نصفين متساويين »، فانه أبى إلا أن يكون القرشيون أمراء، وأن يكون الأنصار وزراء وهذا يدعونا لأن نعتبر الوزارة مرتبة أدنى من الإمارة في مفهوم الخلفاء، بعد وفاة الرسول.

فإذا أتينا إلى العصر الأموي فاننا نميل إلى القول بأن الوزارة وجدت[٨٧]، وان لم تعط هذا الاسم دائماً، لأننا إذا نظرنا إلى ما كتبه الطبري في أحداث سنة ٥٨ هـ عن قُبَيْصة ابن ذُؤَيب لوجدنا أنه كان يجمع كل صفات الوزير في العصر العباسي وان لم يسمّ وزيراً، جاء في النص: « أن عبد الملك بن مروان تقدّم إلى حجابه أن لا يحجب عنه قُبَيْصة بن ذُؤَيب أي ساعة جاء من ليل أو نهار، إذا كان خالياً أو عنده رجل واحد، وإن كان عند النساء أدخل المجلس وأعلم بمكانه، وكان الخاتم وكانت السكة إليه، تأتيه الأخبار قبل عبد الملك، ويقرأ الكتب قبله ويأتي بالكتاب إلى عبد الملك منشوراً[٨٨] »، ومن الطبيعي أن يكون هناك وزراء إلى جانب أكثر الخلفاء يشاركونهم في تحمل أعباء الحكم، إذ لا يعقل أن تقوم دولة مترامية الأطراف، وأن لا يكون فيها وزير أو وزراء، وأن يكون الخليفة وحده المهيمن على كل صغيرة وكبيرة، وإنما كانت الوزارة كما قال ابن طباطبا « لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك، فلم تكن متقنة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى

---

(٨٧) يرد عند المسعودي أن معاوية كان يجتمع أول ما يجتمع بخاصته ووزرائه لكي يتباحثوا في شؤون الدولة، ثم يعود فيجتمع بهم ثانية بعد صلاة الظهر فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ثم يجتمع بهم ثالثة بعد صلاة العشاء فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم، (المسعودي، مروج الذهب ص ٢٩ ــ ٣١) ويرد عند ابن الحكم، أن الخلفاء كانوا يتخذون رجاء بن حيوة وزيراً ومستشاراً وقيماً على أعمالهم وأولادهم (سيرة عمر ابن عبد العزيز ص ١١٨). وفي الطبري ج ٤ ص ٢٥٥ حول سخط أهل افريقية وحضور وفد منهم إلى دمشق في خلافة هشام بن عبد الملك للاحتجاج على تصرفات أميرهم أنه لم يكتب لهم مقابلة الخليفة.. فكتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء، وفي أحداث سنة ١٢٦ هـ نقرأ أن حسّان النبطي أخبر يوسف بن عمر أن الوليد عازم على تولية عبد الملك بن الحجاج وأنه لابد ليوسف إذا أراد أن يحتفظ بمنصبه من اصلاح أمر وزراء الخليفة (ج ٦، ص ٤١٢).

(٨٨) الطبري، ج ٦ ص ٤١٢.

الوزير، فلما ملك بنو العباس، تقررت قوانين الوزارة، وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً[٨٩]، ويستخدم كل من اليعقوبي والجهشياري تعبيراً يعبر عن وضع هؤلاء الكتاب الذين كانوا بمنزلة الوزراء، فيذكر اليعقوبي أن قبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع الجذامي كانا يكتبان لعبد الملك وكانا غَالِبيَن عليه[٩٠]، وكان يكتب لهشام بن عبد الملك سعيد بن الوليد بن عمرو بن جبلة الأبرش وكان غالباً عليه[٩١]، كما كان عبد الحميد غالباً على مروان[٩٢].

وكان هؤلاء الكتاب المستشارون على درجة عالية من التفقه في الدين، يتقنون اللغة ويجيدون الخط، ويروون الأشعار، ويعرفون غريب معانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وكان عبد الملك يمتدح روح بن زنباع بقوله: إنه شامي الطاعة عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة[٩٣]. أما قبيصة بن ذؤيب فيدعوه الذهبي، الامام الكبير الفقيه الخزاعي المدني ثم الدمشقي الوزير[٩٤].

٣ ــ الولاة

كان من عادة الخلفاء الراشدين إذا أرسلوا قائداً لفتح بلد، ولوه عليه قبل خروجه لفتحه، فقد روى الواقدي أن أبا بكر ولّى عمرو بن العاص فلسطين، وشرحبيل الأردن، ويزيد دمشق، وأنه إذا حدث قتال فأميرهم هو الذي يكونون في عمله[٩٥]. كما روى أنه أمر عمروا مشافهة أن يصلي بالناس إذا اجتمعوا، وإذا تفرّقوا صلّى كل أمير بأصحابه، فلما جاء خالد مددا، نلاحظ توحيداً للقيادات استمر

---

(٨٩) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٢٠، ١٢١.

(٩٠) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٨.

(٩١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب ص ٥٩، ويحدثنا الطبري أن هشاماً رفض أن يوافق على شروط الصلح بين السغد والمسلمين التي عقدها نصر بن سيار والي خراسان، فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط (الطبري ج ٧، ص ١٩٢).

(٩٢) الجهشياري، ص ٣٣.

(٩٣) الجهشياري، ص ٣٥.

(٩٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٢٨٢.

(٩٥) البلاذري، فتوح، ص ١١٦، ١١٧.

في خلافة عمر بن الخطاب الذي جمع أمر الشام كله وامرة الأمراء في الحرب والسلم لأبي عبيدة بن الجرّاح لمكانته وعظم ثقته به[٩٦]، وعمد أبو عبيدة أثناء عملية الفتوح إلى تعيين وال على كل مدينة صالحه أهلها[٩٧]، وضم جماعة من المسلمين إليه، وكانت مهمة هذا الوالي بالدرجة الأولى أن يمنع أهل المدينة وأن يجبي الجزية والخراج[٩٨]، وبقي لرؤساء أهل كل مدينة مكانتهم في إدارة شؤون رعاياهم من أهل الذمة[٩٩]، وفي رواية سريانية لمؤلف مجهول أن الخليفة أمر قواده أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة يبقون إذا شاؤوا يواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح[١٠٠]، وقد اتبع أبو عبيدة هذه السياسة لكي يتألف الناس، وليسمع به غيرهم من أهل المدن التي لم يطلب أهلها الصلح فيسارعوا إلى طلبه[١٠١].

يتبين لنا من النصوص التي بين أيدينا أن أبا عبيدة كان يتمتع بصلاحيات واسعة عسكرية ومدنية، فهو الذي يوجه القادة، ويعين العمال على الكور[١٠٢]، ويوافق على عقود الصلح التي يبرمها قواده[١٠٣]، كما يلي أمر القضاء[١٠٤]، وقد استمرت امرته على الشام حتى وفاته في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ[١٠٥].

بالرغم من كل هذه الصلاحيات التي منحها عمر بن الخطاب لأبي عبيدة فان هذا لم يكن يمنعه من التدخل في أمور كثيرة، إذ يذكر الطبري أن عمر أتى الشام

---

(٩٦) المصدر السابق، ص ١٢٣، خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٥٧، ابن سعد، الطبقات، ج٧، قسم ٢، ص ١١١، ١١٢.

(٩٧) أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٦.

(٩٨) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

(٩٩) أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٦، ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٩٥.

(١٠٠) Chronicum Annonymus ad. annum Christi 1234. pertinens XIV P.188.

(١٠١) أبو يوسف، الخراج ص ٨١.

(١٠٢) البلاذري، فتوح، ص ١٣٧، ١٥٢.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(١٠٤) أبو يوسف الخراج، ص ١٤٠.

(١٠٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١١١، ١١٢.

سنة ١٧ هـ «فقسّم الأرزاق وسمّى الشواتي والصوائف، وسدّ فروج الشام، وأخذ يدور بها ويسمي ذلك في كل كورة واستعمل على الساحل عبد الله بن قيس[١٠٦]»، وعندما أمّن عمر أهل إيلياء واكتتبوا منه على إيلياء وحيّزها، وصارت فلسطين نصفين، نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة، فرّق عمر فلسطين على رجلين، فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة، وعلقمة بن مجزر على نصفها الآخر وأنزله إيلياء[١٠٧].

ولم يجمع عمر بن الخطاب الشام لعامل واحد بعد وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ هـ إذ عين عياض بن غنم على حمص وقنسرين والجزيرة ولم تكن الجزيرة قد فتحت بعد، وإنما كان من عادة الخلفاء كما رأينا أنهم إذا أرسلوا قائداً لفتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه[١٠٨]. وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وعمرو بن العاص فلسطين والأردن[١٠٩]. وكان ولاة الشام غند وفاة عمر، معاوية على دمشق والأردن، وعلقمة بن مجزر على فلسطين، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين والجزيرة[١١٠].

وكانت صلاحية الوالي تتوقف على ما يرد في صك التعيين من ولاية على الصلاة أو الحرب أو الخراج، أو ثلاثتهم معاً، ولم يتبع الخليفة عمر نهجاً معيناً، إذ يبدو أن ذلك كان يتوقف على شخصية الوالي وعلى المصر[١١١]. واستمر تدخل عمر في تعيين العمال ضمن المنطقة التي يحكمها الوالي ولكن بطريق غير مباشر، أي بايعاز من الخليفة، فقد ولّى عمر مثلاً علقمة بن علاثة بن عوف حوران ولكنه جعل ولايته من قبل معاوية، لأن معاوية كان هو الوالي على جند دمشق وحوران تابعة له[١١٢]. كما أن

---

(١٠٦) الطبري، ج ٤ ص ٦٤، ٦٥.
(١٠٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٠٨.
(١٠٨) البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.
(١٠٩) خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٥٧.
(١١٠) البلاذري، فتوح، ص ١٧٨، الطبري، ج ٤، ص ٢٨٩.
(١١١) الطبري، ج ٤ ص ١٤٤، الدينوري، ص ١٢٩، ابن سعد، ج ٦، ص ٣.
(١١٢) البلاذري، فتوح، ص ١٣٥.

تعيين القضاة كان يتم من قبله، فقد ولّى أبا الدرداء قضاء دمشق وصلاتها وولّى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما[١١٣].

بعد وفاة عمر جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما[١١٤]، وأصبح معاوية يتمتع بصلاحيات واسعة جداً فأصبح والياً على الصلاة والحرب والخراج، وكانت إمامة الوالي في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالي وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة، وبما أن الإدارة المالية جمعت له كذلك فانه أصبح مطلق التصرف في ولايته، وكان تعيين الولاة على الأجناد عائداً إليه[١١٥]، وهؤلاء الولاة بدورهم كانوا مسؤولين أمامه.

إن هذه الصلاحيات هي التي مكّنت معاوية خلال هذه الفترة من تثبيت سلطانه، ومن ثم فانه عندما بدأت الفتنة ووفد معاوية على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر ولاة بني أمية وغيرهم للتشاور في أمر الفتنة التي انتشرت في أرجاء الدولة، اقترح معاوية على عثمان أن ينطلق معه إلى الشام[١١٦]، وكانت نصيحة معاوية لعثمان بالانتقال إلى الشام وبإظهاره أهمية اعتماد البيت الأموي على هذا الإقليم، تمثل مفهوماً جديداً في التطور السياسي الذي شهدته الدولة الإسلامية إذ ذاك، فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها، وهاجر القسم الأعظم من القبائل منها، ان لم نقل قبائل هامة برمتها، وأقامت في المعسكرات التي تحولت إلى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة، وتناقصت أهمية الحجاز ولم تعد المصر الأوحد الذي تقرر منه سياسة الدولة، ومن ثم فان عليا نفسه خرج إلى العراق واتخذ من الكوفة مركزاً له عندما أيقن أن الخلاف بينه وبين معاوية لن ينتهي إلا بالحرب، واستطاع معاوية بالاعتماد على أهل الشام كما رأينا أن يقف في وجه علي وأن يصبح خليفة للمسلمين.

---

(١١٣) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(١١٤) المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩، ابن سعد، الطبقات، ج ٧، قسم ٢، ص ١٢٨.

(١١٥) الطبري، ج ٤ ص ٤٢١.

(١١٦) الطبري، ج ٤، ص ٣٤٥.

بانتقال الخلافة إلى معاوية أصبحت الشام هي الولاية الوحيدة التي وقعت تحت الإدارة المباشرة للخليفة، وكان يساعد الخليفة في إدارة هذه الولاية عدد من الولاة، فكان لكل جند بما في ذلك جند دمشق وال أو نائب عن الخليفة، ولم يجمع خلفاء بني أمية جندين لوال واحد كما حدث في خلافة عمر بن الخطاب، كما أن صلاحياتهم كما يبدو لم تكن واسعة وإنما كانوا على حد تعبير ابن العديم بمنزلة الشرط لا يستقلون بالأمور والحروب[١١٧]، أي أن مهمة الوالي الرئيسية كانت حفظ الأمن والنظام في المنطقة بالإضافة إلى تعيينه العمال على المدائن والقرى ومراقبتهم بحيث يجزي محسنهم ويستبدل المسيء منهم[١١٨]. وقد يكون الوالي أحياناً مسؤولاً عن الإدارة المالية في منطقته فيكون أكثر حرية واستقلالاً في التدابير التي يتخذها، ذلك أن عامل الخراج كان بإمكانه أن يحدّ كثيراً من سلطة الوالي مما يؤدي إلى النزاع بينهما[١١٩]، وكان من مهمة الوالي كذلك الاهتمام بأمر السجون وأهلها، ويتعرض ابن سعد لأوضاع السجون وتنظيمات عمر بن عبد العزيز الذي أمر ولاته أن ينظروا بأمر السجون وأن يستوثقوا من أهل الدعارات، وأن يكتب لهم برزق الصيف والشتاء. كما أمر أن لا يجمع بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ولا حبس واحد، وأن يجعل للنساء حبس على حدة، وأن يوكل أمر السجن إلى شخص يثق به ولا يرتشي[١٢٠].

ليست لدينا نصوص واضحة تشير إلى مهمات عمّال النواحي والقرى، ومع ذلك فان النص الذي يورده الجهشياري يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن مهمته الأولى والأساسية كانت كما في العهد الراشدي جباية الأموال، لأن الأمور المتعلقة بأهل الذمة، كانت تدار من قبل رؤسائهم، إذ عندما استشار عبد الملك بن مروان ربيعة الجرشي في أمر الوليد، عندما عزم على تقليده العهد قال له: «إني قد عملت على توليته شيئاً من النواحي أولاً، فإذا مرّت له مدة قلّدته، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك لو بعثت الوليد

(١١٧) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ١، ص ٤١.
(١١٨) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٩.
(١١٩) المصدر السابق ص ١٢٩، الطبري ج ٧ ص ٢٥٥، ٢٥٦.
(١٢٠) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٢٢.

يقسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه فكيف تبعثه جابياً، ان احتاط ذمّ وان رفق عجّز، ولكن ولّه المعاون والصوائف يكن له ذلك شرفاً وذكراً[١٢١].

كان ولاة الأجناد مسؤلين مباشرة تجاه الخلفاء، كما كان عمالهم على المدن والقرى مسؤولين تجاههم، ومن ثم نرى الخليفة إذا أراد أن يصدر أمراً إلى عامل في ناحية، كلف الوالي أن يكتب إلى عامله، فنرى مروان بن محمد مثلاً يكتب إلى معاوية ابن الوليد بن عبد الملك عامله على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامله على البلقاء[١٢٢]. وكان ولاة الأجناد يعينون تعييناً من قبل الخلفاء، وأحياناً ولكن نادراً كان الوالي يقيم في المركز ويعين خليفة له، جاء في أنساب الأشراف عن المدائني عن مسلمة وغيره، أن مروان ولّى عبد الملك فلسطين وجعل روح بن زنباع خليفة لعبد الملك عليها[١٢٣]. ولم ينتخب أهل الشام ولاة أجنادهم إلاّ مرة واحدة عندما بويع مروان بن محمد بالخلافة إذ طلب من أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم[١٢٤].

نلاحظ أحياناً ولا سيما في أوقات الفتن والاضطراب أن السلطة الفعلية لم تكن للوالي وإنما لأشراف المنطقة، فقد كان مروان بن عبد الله بن عبد الملك عاملاً للوليد بن يزيد على حمص، وكان من سادة بني مروان نبلاً وكرماً وعقلاً وجمالاً، ولكن أمر حمص كان لمعاوية بن يزيد بن حصين وليس لمروان بن عبد الله من أمرهم شيء[١٢٥]. أما في فلسطين فقد كان سعيد بن عبد الملك والياً من قبل الوليد بن يزيد، وكان رأس أهل فلسطين يومئذ سعيد بن روح بن زنباع، فلما قتل الوليد كتب سعيد بن روح إلى الوالي أن يرتحل عنهم، وطلب من يزيد بن سليمان سيد ولد أبيه أن يتولى أمر فلسطين، إذ أن أهل فلسطين كانوا يحبونهم لجوارهم[١٢٦]. وفي رواية للطبري أن ابن هبيرة سأل

---

(١٢١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣٧.
(١٢٢) البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٢١، الدينوري، ص ٣٥٩.
(١٢٣) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٤٩.
(١٢٤) الطبري، ج ٣، ص ٣١٢.
(١٢٥) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٦٣.
(١٢٦) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٦٦.

يوماً من سيّد قيس؟ قالوا الأمير، قال: دعوا هذا، سيد قيس الكوثر بن زفر لو بوّق بليل لوافاه عشرون ألفاً لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه[١٢٧].

٤ ـ الكتاب

كان الكتاب في العهد الأموي على أصناف، منهم كاتب للرسائل، وآخر للخراج، وثالث للجند ورابع للقضاء والمظالم[١٢٨]، ولقد ازدادت أعدادهم وازدادت اختصاصاتهم مع ازدياد عدد الدواوين، إلاّ أن أرفعهم مكانة كان صاحب ديوان الرسائل وكان يدعى أحياناً في خلافة بني أمية بمتولي ديوان الرسائل، أو صاحب ديوان المكاتبات، لأنه كان مؤتمنا على أمور الدولة وأسرارها[١٢٩]، وينظر في أمر البريد ومتعلقاته[١٣٠]، ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة، وكان هذا الواجب هو واجب الخليفة نفسه، ولما كان هذا متعذراً لكثرتها واتساع الدولة وكثرة المكاتبين فوض الخليفة هذا الأمر إلى صاحب ديوان الرسائل، واضطر هذا بدوره عندما ازدادت أعباؤه لانشغاله بقراءة الكتب بحضور الخليفة والاجابة عليها مع انشغاله بمراقبة ما يكتب في الديوان والمقابلة به اضطر أن يعتمد على كاتب يقوم مقامه، يتصفح ما يكتب في الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات[١٣١]. واستمر الأمر في الأندلس على ما كان عليه في الشام، فقد كان لكاتب الرسائل المقام الأول، أو كما يقول المقرّي، له حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسائله[١٣٢].

وبما أن أصحاب ديوان الرسائل كانوا يدّبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة، فكانوا بحكم وظيفتهم يتم اختيارهم من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان، وكان

---

(١٢٧) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦.
(١٢٨) الجهشياري، ص ٥٤، أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٣٧٣.
(١٢٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ١٠٣.
(١٣٠) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤.
(١٣١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٣.
(١٣٢) المقّري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج ١، ص ٢١٧.

كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني، وتكونت على هذا النحو طبقة كبيرة من كتاب محترفين، إذ لم تختص بهم دمشق فقط، لأنه كان لكل وال وقائد كاتب[١٣٣] وأحياناً كان الوالي في الولاية الكبيرة يتخذ طائفة من الكتاب[١٣٤]، وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات أن يلفتوا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء حتى يعينوهم في دواوينهم، واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها، سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه[١٣٥]، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ليسلكه بين كتابه، على نحو ما صنع بمحمد بن يزيد الأنصاري، إذ كتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد، وكتب إليه «إذا أردت رجلاً مأموناً فاضلاً عاقلاً وديعاً مسلماً كتوماً تتخذه لنفسك وتضع عنده سرّك وما لا تحب أن يظهر، فاتخذ محمد بن يزيد»، فكتب إليه عبد الملك أن يحمله إليه، واتخذه كاتباً وكان ذلك سنة ٨٥ هـ[١٣٦]. وعندما توفي عبد العزيز بن مروان، أخذ عبد الملك رأى محمد بن يزيد فيمن سيتولى الخلافة من بعده، فأشار عليه بالوليد سيد الناس، وأرضاهم وأفضلهم، ولسليمان فتى العرب من بعده، فطلب عبد الملك منه أن يكتب عهداً للوليد ولسليمان من بعده. وغضب الوليد عليه فلم يوله شيئاً لأنه أشار أن تكون الخلافة من بعده لسليمان[١٣٧]، فلما كانت خلافة سليمان أرسله سنة ٩٧ هـ والياً على افريقية فكانت ولايته سنتين وأشهراً، لأن عمر بن عبد العزيز عزله، وعندما قتل أهل افريقية يزيد بن أبي مسلم والي الخليفة يزيد بن عبد الملك لأنه أساء السيرة فيهم، ولّوا على أنفسهم محمد بن يزيد وكتبوا إلى الخليفة مبينين أنهم لم يخلعوا أيديهم من الطاعة، ولكن يزيد بن مسلم سامهم مالا يرضاه الله والمسلمون فقتلوه وأعادوا محمد ابن يزيد، فأقرّه يزيد ثم لم يلبث أن أرسل بشر بن صفوان الكلبي[١٣٨].

---

(١٣٣) الطبري، ج ٦، ص ١٨٠ — ١٨٢.
(١١٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٤.
(١٣٥) الطبري، ج ٦، ص ٣٨٧.
(١٣٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤١٥.
(١٣٧) المصدر السابق، ج ٦ ص ٤١٥.
(١٣٨) المصدر السابق، ج ٦ ص ٦١٧.

وإذا دققنا في الروايات المتعلقة بكتاب الرسائل في العصر الأموي، لوجدنا أن صاحب ديوان الرسائل كان من العرب في خلافة معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك[١٣٩]، ثم لم تلبث هذه المكانة أن انتقلت إلى الموالي[١٤٠]، وكان أشهرهم على الاطلاق عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري[١٤١]، والذي تتلمذ على سالم مولى سعيد بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك[١٤٢]، إذ أن عبد الحميد التحق بديوان هشام بن عبد الملك وأعجب به سالم فأصهر إليه، وما زال حتى خرّجه كاتباً لا يبارى، وعرفه مروان بن محمد، وكان عاملاً لهشام على أرمينية، فاتخذه كاتباً له، ولعلنا لانخطيء في الحكم إذا قلنا أن ما أثبته الطبري من رسائل لمروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد، وعندما تولى مروان الخلافة أصبح عبد الحميد الكاتب والمستشار والغالب عليه، وعندما هزم مروان في موقعة الزاب، ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قتلا معا في بوصير[١٤٣]، ولعل مما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد أبناءه وأحفاده وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم[١٤٤].

وعبد الحميد ولا ريب أبلغ كتاب هذا العصر وأبرعهم، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر[١٤٥]، ولا تلفتنا كما يقول الدكتور شوقي ضيف براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب، وإنما يلفتنا أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت

---

(١٣٩) الجهشياري، ص ٢٤، ٣١، ٣٤، ٤٣.

(١٤٠) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٤١٨ ــ ٤٣١، ج ٢، ص ٤٦٨.

(١٤١) الجهشياري، ص ٧٢، الطبري ج ٧ ص ١٨٢، وعبد الحميد فارسي الأصل ويقول أكثر من ترجموا له انه من أهل الأنبار بالعراق.

(١٤٢) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٤٥، تهذيب، تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٥٧.

(١٤٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١ ص ٣٠٧.

(١٤٤) الجهشاري، ص ٨٢.

(١٤٥) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٢٣١.

عن الساسانيين والتي يقال أنه كان أحد نقلتها إلى العربية[١٤٦]، فقد كان ملوك الفرس يقدّمون الكتاب ويعرفون فضل صناعة الكتابة، ويعتبرونهم الألسنة الناطقة عن الملوك، وخزّان أموالهم، وأمناءهم على رعيتهم وبلادهم بحيث أنهم كانوا إذا أنفذوا جيشاً أنفذوا معه وجها من وجوه كتابهم، وأمروا صاحب الجيش ألا يحل ولا يرتحل إلا برأيه، يبتغون بذلك فضل رأي الكاتب وحزمه[١٤٧]. وتشير رسالة عبد الحميد إلى الكتّاب إلى الكيان والمكانة الهامة التي أصبحت لهم، إذ أن رسالته لم تكن موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه، وإنما هي موجهة إلى طائفة الكتاب، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتاب في تدبير الحكم، وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية، تتصل بالخلفاء والولاة والرعية[١٤٨]، ونحن لا نقرنها إلى ما استهل به الجهشياري في كتابه «الوزراء والكتاب» من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزراءهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر بهذه الوصايا في رسالته التي تعد دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب[١٤٩].

ازدادت مكانة الكتاب منذ خلافة هشام بن عبد الملك، الذي كان يوكل إلى سالم بالكتابة عنه إلى ولاته في الشؤون التي تعرض له[١٥٠]، أي أن الخليفة لم يعد يملي كتبه على كتابه، كما كان الشأن في القديم، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ثم يعرضها عليه ومن ثم لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم بل أصبح ضمير غائب، وكان سالم عظيم القدر عند هشام[١٥١]، ونظراً لمكانته فانه كان يتجاوز مركزه أحياناً، فقد سار في موكب فمنعه هشام[١٥٢]، كما كان يسير مع هشام في الموكب، فإذا جاء

---

(١٤٦) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣، ص ٤٧٤.

(١٤٧) الجهشياري، ص ٤.

(١٤٨) المصدر السابق، ص ٧٣ ــ ٧٥.

(١٤٩) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٤٧٤، ٤٧٥.

(١٥٠) الجهشياري، ص ٦٢.

(١٥١) البلاذري، أنساب، مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب ــ جامعة بغداد، ذات الرقم ١٦٤٠، ج ٧ ص ٥٥٩.

(١٥٢) الطبري، ج ٧ ص ٢٠٢.

الرجل الغريب يوقفه سالم ويسأله حاجته كأنه هو أمرّ هشاماً[١٥٣]، كما أنه كان يقرأ الكتب لهشام، فلا يدخل منها عليه إلاّ ما يسره، وإذا أخفى سالم أمراً وعلم به هشام كان ذلك بالطبع مدعاة لغضبه[١٥٤]، ولكنه لم يعمد إلى عزله بل استبقاه، وعندما توفي هشام بن عبد الملك كان سالم هو الذي أرسل إلى الوليد بن يزيد يعلمه فيه بموت هشام وتوليته الخلافة[١٥٥]، ولذلك أصبح سالم في خلافة الوليد الثاني ليس صاحب ديوان الرسائل فقط، وإنما كان يكتب له على خاص أمره[١٥٦]، وعندما مرض هشام وصار إلى الحد الذي لا ترجى معه الحياة، أرسل عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان وكاتب الوليد بن يزيد الذي خلفه في الرصافة بعد شخوصه منها[١٥٧]، إلى الخزان ان يحتفظوا بما في أيديهم حتى لا يصل أحد إلى شيء، ولما توفي هشام، خرج عياض من السجن فختم أبواب الخزائن، فلم يجدوا لهشام قمقما يسخّن فيه الماء حتى استعاروه، ولا وجدوا كفنا من الخزائن فكّفنه غالب مولى هشام[١٥٨].

٥ ــ صاحب الشرطة

من الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم صاحب الشرطة، ويعتبر اليعقوبي معاوية أول من أقام الشرط[١٥٩]، غير أن الكندي يذكر وجود صاحب الشرطة في ولاية عمرو الأولى على مصر صلاتها وخراجها، منذ أن افتتحها حتى صرف عنها، أي في خلافة عمر بن الخطاب، وكان على شرطة مصر، خارجة بن حذافة[١٦٠]، بينما يذكر خليفة ابن خياط أن عثمان كان أول من اتخذ الشرط، وكان على شرطه عبد الله بن قنفذ من بني

---

(١٥٣) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٠٢.

(١٥٤) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٩، ٨٠.

(١٥٥) الطبري، ج ٧ ص ٢١١.

(١٥٦) الجهشياري، ص ٦٨.

(١٥٧) أمر الوليد بن يزيد كاتبه عياض أن يكتب إليه بالأخبار، فعتب عليه هشام فضربه وحبسه وألبسه المسوح.

(١٥٨) الطبري، ج ٧ ص ٢١١، العيون والحدائق، ص ١٠٦.

(١٥٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٢١.

(١٦٠) الكندي، الولاة والقضاة، ص ١٠.

تيم قريش[١٦١]، ويذهب المقريزي إلى أبعد من ذلك عندما يذكر أن الخليفة الاول ابا بكر عمد لأول مرة في الإسلام إلى تعيين عامل يقوم بالطواف في الليل، وهكذا كان عبد الله بن مسعود أول من عسّ بالليل، عندما أمره أبو بكر الصديق بعس المدينة[١٦٢]، وبعد أبي بكر كان الخليفة عمر بن الخطاب يقوم بنفسه بالعسس ومعه مولاه أسلم وأحياناً الصحابي عبد الرحمن بن عوف، ويبدو وكأن المقريزي يريد أن يظهر أن من أهم مهام صاحب الشرطة المحافظة على الأمن ليلاً، ولذلك نجده يطلق اسم العسس على الشرط بشكل عام ويسمي صاحب الشرطة بصاحب الليل وهو لقب نجده كذلك في الأندلس كما يقول المقرّي، فكان صاحب الشرطة يعرف في ألسن العامة بصاحب الليل[١٦٣].

من دراستنا للنصوص التي تشير إلى اختصاصات أو مهام صاحب الشرطة، نلاحظ بعض الفروق بين هذه المهام في الولايات وبين المركز، إذ نجد أن صاحب الشرطة كان يعتبر الرجل الإداري الثاني بعد الوالي، فهو يؤم الناس في الصلاة إذا مرض الوالي[١٦٤]، وينوب عن الوالي في حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة[١٦٥]، أو يولّى أحياناً إذا ما عزل الوالي أو مات أو تنحى عن أمور الولاية[١٦٦]، بينما نرى أن صاحب الشرطة يرافق الخليفة دائماً في حله وترحاله في حالة السلم والحرب ويمسك بزمام الأمور في حالة وفاة الخليفة، فعندما حضر الموت معاوية سنة ٦٠ هـ، وكان يزيد غائباً، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته[١٦٧] ومسلمة بن عقبة المرّي فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد وصيته[١٦٨]، وعندما مات معاوية كان الضحاك بن قيس

---

(١٦١) خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٩٥، الكلبي، جمهرة النسب، ص ٢٩ ــ آ.

(١٦٢) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٦٦.

(١٦٣) المقري، نفح الطيب، ج ١ ص ٢١٨.

(١٦٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٠٥، الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣١، ٣٢.

(١٦٥) الكندي ص ٣٩.

(١٦٦) المصدر السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(١٦٧) تشير بعض الروايات إلى أن الضحاك عند وفاة معاوية كان على شرطه (الدينوري ص ٢٢٦، الطبري، رواية عوانه، ج ٥ ص ٣٢٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٨) أما الذهبي فيذكر أن معاوية ولّى الضحاك على دمشق بعد أن عزله عن الكوفة فبقي الضحاك على دمشق حتى هلك.

(١٦٨) الطبري، ج ٥، ص ٣٢٣.

هو الذي صعد المنبر وأكفان معاوية بين يديه تلوح، ليبلغ الناس خبر موت معاوية الذي كان عود العرب، وجدّ العرب، وأنه من كان يريد (أن يشهد دفنه فليحضر عند الأولى)، وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية[١٦٩]. وكان كعب بن حامد على شرط سليمان مرافقاً له في دابق، فلما ثقل سليمان كتب كتاباً وختمه ولم يدر أحد ما كتب فيه وطلب من كعب أن يجمع إليه أخوته وعمومته وجميع أهل بيته وعظماء أجناد الشام، وأن يحملهم على البيعة لمن سمّى في ذلك الكتاب وأن يضرب عنق من يأبى منهم أن يبايع[١٧٠]، والرواية التي يوردها الطبري شبيهة بتلك الواردة عند الدينوري، فقد أمر سليمان صاحب شرطته كعب بن حامد أن يأمر أهل بيته للاجتماع ففعل، ثم طلب سليمان من رجاء بن حيوة أن يذهب بكتابه إليهم وأن يأمرهم بمبايعة من سمّى في كتابه، فلما توفي سليمان، وخشي حيوة الفتنة أرسل إلى كعب بن حامد العبسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق وطلب منهم أن يبايعوا ثانية لمن سمي في ذلك الكتاب المختوم، فلما بايعوا رجلاً رجلاً، قرأ حيوة الكتاب عليهم، فنادى هشام بن عبد الملك، لا نبايعه أبداً، فقال حيوة: «أضرب والله عنقك قم فبايع» فقام يجر رجليه، ولم يكن حيوة ليجرأ على مثل هذا الموقف لولا وجود صاحب الشرطة إلى جانبه والذي يسيطر على عدد كبير من الشرط، بحيث يستطيع أن يمنع حدوث فتنة أو اضطراب[١٧١].

وكان صاحب الشرطة يرافق الخليفة في الحرب والسلم، فقد رافق الحجاج عبد الملك، وكان على شرطه آنذاك إلى العراق لقتال مصعب[١٧٢]، وكان مع مروان بن محمد في معركة الزاب صاحب شرطه كذلك، وعندما تقاعست قضاعة والسكون والسكاسك، طلب من صاحب شرطه أن ينزل[١٧٣]. وعندما كان هشام بن عبد

---

(١٦٩) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٢٨.
(١٧٠) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٦.
(١٧١) الطبري، ج ٦ ص ٥٥٢.
(١٧٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١١٢.
(١٧٣) الطبري، ج ٧ ص ٤٣٤.

الملك في الرصافة، كان كعب بن حامد صاحب شرطه معه، وكان والي دمشق إذ ذاك كلثوم بن عياض القشيري، وكان الولاة في الشام كما قال ابن العديم بمنزلة الشرط[١٧٤]، ولذلك نجد أن كلثوم بن عياض هو الذي كتب إلى هشام يذكر له أمر الحريق الذي ظهر في دور دمشق، ويتهم بهذا العمل موالي خالد بن عبد الله القسري وبأنهم يريدون الوثوب على بيت المال، فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم والنساء، ففعل ثم كتب الوليد بن عبد الرحمن عامل خراج دمشق إلى هشام يخبره بأخذ أبي العمرس ومن كان معه سمّاهم رجلاً رجلاً ونسبهم إلى قبائلهم وأمصارهم، ولم يذكر فيهم أحداً من موالي خالد، فكتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنفه، ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس منهم[١٧٥]، وعندما علم مروان بن محمد، أن ابراهيم بن محمد يكاتب أهل خراسان ويكاتبونه كتب مروان إلى عامله على دمشق أن يكتب إلى عامله على البلقاء في المسير إلى كداد أو الحميمة وأخذ ابراهيم بن محمد بن علي وشده وثاقاً وحمله إليه في خيل كثيفة[١٧٦]، أي أن والي دمشق وعامله على البلقاء قاما بالمهمة التي كان يقوم بها صاحب الشرطة في العراق، إذ عندما كان الأمر يتعلق بدعوة شخص أو احضاره أمام الأمير، كان رجال الشرطة يتولّون ذلك، فقد أرسل المغيرة بن شعبه قبيصة بن الدمّون وكان على شرطته إلى منزل حيّان بن ظبيان السلّمي، عندما أخبره قبيصة أن الخوارج يجتمعون في منزل حيّان، فسار قبيصة في الشرطة وفي كثير من الناس وألقى القبض على حيّان ومن كان معه[١٧٧]، وعندما تخلّف حجر بن عدي عن تلبية دعوة زياد بن أبيه إليه أمر زياد الشرط باحضاره بالقوة وكان هيثم بن شداد أمير شرطته[١٧٨].

ونظراً لأن صاحب الشرطة كان مرافقاً للخليفة دائماً، فانه كان يوكل إليه أمر

---

(١٧٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١ ص ٤١.

(١٧٥) الطبري، ج ٧ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(١٧٦) البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ١٢١، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٤٣.

(١٧٧) الطبري، ج ٥ ص ١٨٢.

(١٧٨) الطبري، ج ٥ ص ٢٥٨.

تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخليفة، فهذا عمر بن عبد العزيز يأمر صاحب الشرط أن يطبق العقوبة على كهول من قنسرين شهدوا زورا على الفرات بن مسلم صاحب خراج قنسرين[١٧٩]، وعندما توعد روح بن الوليد رجلاً حمصياً كان عمر بن عبد العزيز قد قضى بارجاع حوانيته إليه وكان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها لروح، طلب عمر بن عبد العزيز من صاحب شرطته أن يتوجه إلى روح، فان سلّم إليه حوانيته فله ذلك، وإن لم يفعل فليأته برأسه[١٨٠].

وكان يوكل إلى صاحب الشرطة أحياناً مهام أخرى، كأمر الخاتم والخزائن وبيوت الأموال[١٨١]، كما يذكر ابن عساكر أن خالد بن اللجلاج، أبو ابراهيم العامري، ولي الشرطة بدمشق، وكان على بناء مسجد دمشق[١٨٢]، أي ربما كان مراقباً لحسن سير بناء المسجد نظراً للعدد الكبير من الفعلة الذين ساهموا في بنائه، وكان يساعد صاحب الشرطة في أداء عمله شرطة وحرس[١٨٣]، وعسس[١٨٤]، وأعوان للشرط[١٨٥].

هذه الروايات المتفرقة تعطينا فكرة عن الدور الذي لعبه أصحاب الشرط في الأزمات بالإضافة إلى دورهم في توطيد الأمن والنظام وتنفيذ العقوبات واشتراكهم في الحروب إلى جانب الخلفاء، ولذلك قيل ان الشرط أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت، وقيل هي طائفة من خيار أعوان الولاة[١٨٦].

ويتبين مما ذكره الرواة عن الأشخاص الذين كلفوا بهذا المنصب في الشام، أنهم كانوا من الشخصيات المرموقة، فزمل بن عمرو بن نمير الذي استعمله معاوية على

---

(١٧٩) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٠.
(١٨٠) المصدر السابق، ص ٥١.
(١٨١) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٥٥.
(١٨٢) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥ ص ٨٨.
(١٨٣) وكيع، أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، الطبعة الأولى، ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧م، ج ١، ص ١١٩.
(١٨٤) تهذيب، ج ٤ ص ٧٧.
(١٨٥) البلخي، كتاب البدء والتاريخ، باريز، ١٩١٩م، ج ٦، ص ٥١.
(١٨٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١ ص ٤١.

شرطته[١٨٧] كانت له وفادة على رسول الله (صلعم) وعقد له رسول الله لواء على قومه[١٨٨]. أما الضحاك بن قيس فعداده في صغار الصحابة، حدّث عنه معاوية ووصفه بالعدالة، وسعيد بن جبير والشعبي وغيرهم وكان ممن شهد فتح دمشق[١٨٩]، وكان خالد بن معدان بن أبي كرب الذي تولى شرطة يزيد بن معاوية تابعياً ثقة روى عن أبي عبيدة، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي الدراء، وكانت إذا عظمت حلقته، قام كراهية الشهرة، وكان إذا أمر الناس بالغزو يجعل اول فسطاط يضرب، وقال حبيب بن صالح ما خفنا احدا من الناس مخافة خالد[١٩٠]. وكان خالد بن اللجلاج أبو ابراهيم العامري صاحب الشرط في خلافة الوليد ذا سن وصلاح، جرىء اللسان على الملوك والغلظة عليهم[١٩١]، ثم ان كعب بن حامد العبسي بقي صاحباً للشرطة في خلافة سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام، وأقرّه هشام ثلاث عشرة سنة ثم ولاه أرمينيا، وان شخصاً يحتل هذا المنصب فترة طويلة كهذه ثم يعهد إليه بولاية أرمينيا، لا بد أن يتحلى بصفات تؤهله لذلك[١٩٢].

وما دمنا في صدد الحديث عن الشرطة، فلا بد من أن نتبعه بالحديث عن الحرس، ويتفق اليعقوبي وخليفة بن خياط بأن معاوية أول من اتخذ صاحب حرس[١٩٣]، وإذا كان معاوية أول من اتخذ صاحب حرس، فقد كان زياد بن أبيه كذلك أول من أنشأ لنفسه حرساً خاصاً عدد أفراده خمسمائة رجل[١٩٤]. وكانت مهمة الحرس، حراسة الخليفة بشكل خاص[١٩٥]، أو الأمير في مصره[١٩٦]، كما كان

(١٨٧) تهذيب، ج ٥، ص ٣٨٦.
(١٨٨) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨٦.
(١٨٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٢٤١.
(١٩٠) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٣٦، ٥٣٧، تهذيب، ج ٥، ص ٨٩.
(١٩١) تهذيب، ج ٥ ص ٨٨.
(١٩٢) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٤٣١، ج ٢ ص ٤٨٧، ٥٤٤.
(١٩٣) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧٦، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٢١.
(١٩٤) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ١ ص ١٦٢، الطبري، ج ٥ ص ٢٢٤.
(١٩٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٩، ٣٠، تهذيب، ج ٢ ص ٣٧.
(١٩٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٣٨.

يعهد إليه بحراسة المسجد[١٩٧]، ولكننا نجد الكندي يذكر أنه كان للمسجد في القسطاط شرطة يذبون عنه[١٩٨]. وهنا قد نتساءل إذا كان هناك من تداخل في استخدام هذين التعبيرين إذ نجد وكيعا في صدد الحديث عن مروان بن الحكم وتوليته مصعب بن عبد الرحمن شرطته في المدينة، أن مصعب يقول لمروان: اني لا أضبط المدينة بحرس المدينة، فابغني رجالاً من غيرها، فأعانه بمائتي رجل من أهل ايله فضبطها ضبطاً شديداً[١٩٩]، ومن تتبعنا لما يرد في مصادر أخرى، نرى أن الحرس لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق للكلمة، ويتضح ذلك من أن المؤهلات أو الصفات المطلوبة من صاحب الحرس كانت غير تلك المطلوبة من صاحب الشرط. إذ كان يفضل أن يكون صاحب الحرس مسنا عفيفا مأمونا[٢٠٠]، أما صاحب الشرطة فكان يفضل أن يكون شديد الصولة قليل الغفلة، سمين الأمانة، أعجف الخيانة[٢٠١]. وكان للحرس في الشام نوب، وعلى كل نوبة عامل[٢٠٢]، ويبدو أن الحرس في الشام كان معظمه يتألف من الموالي[٢٠٣]، ولذلك نلاحظ أن صاحب الحرس في الشام كان دائماً من الموالي منذ عهد معاوية وحتى نهاية الدولة الأموية، فكان على حرس معاوية، أبو المختار مولى لحمير[٢٠٤]، وعلى حرس عبد الملك، عدي بن عياش مولى لحمير كذلك، ثم أبي الزعيزعة مولى عبد الملك، ثم خالد بن الريان مولى بني محارب[٢٠٥] الذي ولي الحرس لعبد الملك والوليد وسليمان[٢٠٦]، وفي خلافة عمر بن عبد العزيز كان عمر بن

---

(١٩٧) الطبري، ج ٧ ص ٢٤٠، العيون والحدائق، ص ١٣٦.
(١٩٨) الكندي، ص ٦٢.
(١٩٩) وكيع، أخبار القضاة، ص ١١٩.
(٢٠٠) اليعقوبي، تاريخ، جح ٢ ص ٢٣٤.
(٢٠١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١ ص ١٦، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥ ص ١٩، الكلبي، جمهرة النسب، ص ٨٤ ب.
(٢٠٢) الطبري، ج ٧ ص ٥٧٥.
(٢٠٣) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٧٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٢٤.
(٢٠٤) خليفة، ج ١ ص ٢٧٦.
(٢٠٥) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٩٥.
(٢٠٦) المصدر السابق، ج ١ ص ٤١٩، ٤٣٢، تهذيب، ج ٢ ص ٣٧.

المهاجر مولى الأنصار على الحرس[٢٠٧]، وعين هشام نصير مولاه على الحرس، ثم ولّى الربيع بن شابور مولى بني الحريش مع الخاتم[٢٠٨].

ولم يكن للخليفة وحده حرس، وإنما كان لوالي دمشق ولولاة الأجناد أحراسهم كذلك[٢٠٩]، ويذكر ابن قتيبة أن عمرو بن سعيد صالح عبد الملك بعد أن حاصر أهل دمشق أشهراً على أنه الخليفة من بعده، ففتح دمشق ثم أرسل عبد الملك إلى عمرو، وكان بيت المال في يده، أن يخرج للحرس أرزاقهم، فقال عمرو: ان كان لك حرس فان لنا حرساً، فقال عبد الملك أخرج لحرسك أرزاقهم[٢١٠]، بمعنى أن حرس الخليفة وحرس أمراء الأجناد كانوا يأخذون أرزاقهم من بيت مال المسلمين، أما إذا كان لبعض الشخصيات حراسهم فانهم يدفعون أرزاقهم من أموالهم.

٦ ــ صاحب البريد

من الوظائف الرئيسية الهامة وظيفة صاحب البريد، ولم تكن هذه الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين بالرغم من أن نظام البريد كان معروفاً في الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية[٢١١]، فلما استقرت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان قرر وضع البريد ليكون أداة ربط بينه وبين عماله في الولايات المختلفة، فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم، وعرّفهم ما يريد، فوضعوا له البريد[٢١٢]. ولم يكن البريد في عهد بني أمية نظاماً يستعمله الشعب كما هو في الوقت الحاضر، وإنما كان نظاماً رسمياً حكومياً، وقد استعمل الخلفاء نظام البريد في أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة، ولتلقي الأخبار، ولكن ليس معنى هذا أن البريد كان

---

(٢٠٧) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٦٩.

(٢٠٨) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٤٥.

(٢٠٩) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٩.

(٢١٠) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٢١.

(٢١١) E. I. New Edition, Art., Barid.

(٢١٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤ ص ٣١٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩.

ينقل المراسلات فقط بين العمال والولاة من جهة والخلفاء من جهة أخرى وإنما كان باستطاعة أي فرد من أفراد الشعب أن يرسل إلى الخليفة ما يريده عن طريق بريده، وكان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً، أمر مناديه فنادى: «من له حاجة فليكتب إلى أمير المؤمنين[٢١٣]». وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتاباً إلا حمله[٢١٤]. وكان للبريد شخص خاص يتولى أمره، بتنفيذ مايصدر، وتلقي مايرد يعبر عنه بصاحب البريد[٢١٥]، وكان عبد الملك يأمر حاجبه أن يدخل عليه صاحب البريد متى جاء في ليل أو نهار «فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة[٢١٦]». ولم يكن من مهام صاحب البريد عرض الرسائل والتقارير المتراكمة لديه فقط، وإنما كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة، والأشخاص المناسبين في المحطات على الطريق وتعيين السعاة[٢١٧]، والاهتمام بدفع المرتبات والأرزاق لهم، وبتدبير أمر الدواب وبراذعها، ومن يتولى عنايتها[٢١٨]، ويقول قدامة بن جعفر في صدد كلامه عن ديوان البريد: «والذي يحتاج إليه صاحب هذا الديوان أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل مايحتاج معه إلى الكافي المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ[٢١٩]»، ولقد لاحظنا عند الكلام عن الكتاب أن صاحب ديوان الرسائل كان إليه أمر البريد أي هو المسؤول عن قراءة هذه الكتب والاجابة عليها وليست هذه من مهام صاحب البريد.

٧ ــ القاضي

أدخل العرب إلى الشام كما أدخلوا إلى كل الولايات التي دخلت ضمن نطاق

---

(٢١٣) الطبري، ج ٥، ص ٣٣٥.

(٢١٤) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٥٦.

(٢١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٧١.

(٢١٦) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٦٧.

(٢١٧) Levy, The Social Structure of Islam, Second edition. p. 301.

(٢١٨) الكندى، ص ٣٨٤.

(٢١٩) قدامه بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة، ليدن، بريل ١٣٠٦ هـ، ص ١٨٤، ١٨٥.

الدولة الإسلامية، نظاماً قضائياً جديداً يقوم على أساس الشريعة الإسلامية، ويخصّ العرب المسلمين أو الذين أسلموا من أهل البلاد؛ أما أهل الذمة فكان لهم قضاؤهم إلاّ إذا احتكموا إلى القاضي المسلم، فله أن يحكم بينهم بالعدل، قال تعالى: «فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين[٢٢٠]». ويذكر الكندي أن القاضي خير ابن نعيم الحضرمي (١٢٠ ــ ١٢٨ هـ) كان يقضي بين المسلمين في المسجد، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضي بين النصارى، وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم[٢٢١]. ويرى الماوردي أنه لا يجوز تقليد ذمي القضاء على أهل الذمة، ولكنه يورد قول أبي حنيفة أنه يجوز تقليده بين أهل دينه، هذا وان كان عرف الولاة بتقليده جارياً فهو تقليد زعامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاء، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، لا للزومه لهم، ولا يقبل الأمام قوله فيما حكم به بينهم، وإذا امتنعوا من تحاكمهم إليه، لم يجبروا عليه وكان حكم الإسلام عليهم أنفذ[٢٢٢].

كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة[٢٢٣]، إذ أن الرسول الكريم تجمعت في شخصه السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وأصبح قاضي المسلمين الأعلى، بعد أن نزل قول الله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم[٢٢٤]». كما أصبح حكمه ملزماً للناس كافة سواء أكان بوحي من الله أو باجتهاد اجتهده، فأصبح بعد ذلك سنة ملزمة أيضاً[٢٢٥].

وثبت أن رسول الله (صلعم) استعمل قضاة على الأقاليم التي اعتنقت الإسلام

---

(٢٢٠) سورة المائدة، آية (٤٥).
(٢٢١) الكندي، ص ٣٥١.
(٢٢٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦٦.
(٢٢٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٧٣٦، ٧٣٧.
(٢٢٤) سورة النساء، آية (٦٤).
(٢٢٥) سورة النساء، آية (٦٤)، «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلّموا تسليما».

وكانت بعيدة عن المدينة، وتكاد كتب السيرة والحديث تجمع على أن القضاة الذين عهد إليهم الرسول بالقضاء ثلاثة، هم علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري[٢٢٦]؛ والذي يسترعي الانتباه هو أن هؤلاء الثلاثة ذهبوا إلى اليمن، ولم تذكر معظم المصادر أسماء قضاة آخرين، إلا أن الماوردي في كتابه «أدب القاضي» يذكر أن الرسول استخلف عتاب بن أسيد على مكة بعد الفتح والياً وقاضياً[٢٢٧]، وأنه قلّد دحية الكلبي قضاء ناحية اليمن[٢٢٨]. وحتى لا تحرم قبائل وأقوام ومناطق من قاض يفصل بين الناس وفقاً لأحكام الشريعة بعد اعتناقهم الإسلام فقد كان الرسول (صلعم) إذا أسلم قوم، أقام عليهم من يعلمهم الشرائع ويقضي بين المتنازعين[٢٢٩].

ان ثبوت تولي ثلاثة من الصحابة القضاء في أيام الرسول، يدل على أن التنظيم القضائي في الدولة النبوية بدأ مع الشعور بالحاجة إليه خلافاً لما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن أبا بكر كان أول من استعمل القضاة في الإسلام[٢٣٠]، بل ان هناك من ذهب إلى أن معاوية هو أول الخلفاء الذين اتخذوا القضاة[٢٣١]، وهو قول منسوب إلى مالك بن أنس: والظاهر أنه يراد من ذلك أن معاوية كان أول من اتخذ قاضياً في قاعدة الخلافة، لأن تتمة عبارة مالك بن أنس، «أن الخلفاء قبل ذلك كانوا يباشرون كل شيء من أمور الناس بأنفسهم»، وسبقها قول وكيع «ولا يعلم أن عثمان استعمل قاضياً بالمدينة»، مع أن هذا الرأي ينقضه ماثبت أن عمر كان قاضياً لأبي بكر[٢٣٢]، وما رواه الطبري من أن زيد بن ثابت كان على قضاء عثمان[٢٣٣].

---

(٢٢٦) وكيع، أخبار القضاة، ج ١ ص ٨٤ــ ١٠٢، أحمد بن حنبل، المسند، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩ م الجزء الثاني، الفقرات ٦٦٦، ٦٩١، ٧٤٥، ٨٨٢، ١١٤٥، ١٢١٠، ج ٣، الفقرة ٢٠٧١، الذهبي، سيرة أعلام النبلاء، ج ١ ص ٤٤٨.

(٢٢٧) الماوردي، أدب القاضي، بغداد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ١٣١.

(٢٢٨) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٢٢٩) الماوردي، أدب القاضي، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧١، ج ١ ص ١٣٣.

(٢٣٠) خليفة ج ١ ص ١٠٨، الطبري، ج ٣ ص ٤٢٦.

(٢٣١) وكيع، ج ١ ص ١٠٥.

(٢٣٢) خليفة، ج ١ ص ١٠٨، الطبري ج ٣ ص ٤٢٦، الماوردي، أدب القاضي، ص ١٣٣ــ ١٣٥.

(٢٣٣) الطبري، ج ٤ ص ٤٢٢، الماوردي، أدب القاضي، ص ١٣٥.

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً، منذ أيام الخليفة عمر ابن الخطاب، نجده يعين القضاة في الأمصار والأجناد إلى جانب الولاة، فقد عمد عمر إلى تعيين القضاة في البصرة والكوفة[٢٣٤]، كما أنه جعل قضاء دمشق وصلاتها لأبي الدرداء وقضاء حمص وقنسرين وصلاتهما لعبادة بن الصامت[٢٣٥]، وفي رواية أخرى أن عمر ولّى قضاء حمص لحابس بن سعد بن المنذر[٢٣٦]، وعبادة قضاء فلسطين[٢٣٧]، وكريب ابن سيف الأنصاري على قضاء الأردن[٢٣٨]، ولاتهمنا الأسماء هنا قدر اهتمامنا بأن عمر قد عمد إلى تعيين قضاة في أجناد الشام الأربعة، وسار عثمان على نهج عمر في تعيين القضاة في الأمصار في مصر، والكوفة، والبصرة، أما في الشام فنجد أن معاوية يستشير أبا الدرداء فيمن يرشح لهذا المنصب فيشير عليه بفضالة بن عبيد[٢٣٩].

عندما أصبح معاوية خليفة، نراه يترك أمر تعيين القضاة في الأمصار لامرائها أحياناً، ويعمد أحياناً أخرى إلى تعيين القضاة فيها[٢٤٠]، وتابع خلفاء بني أمية نهجه[٢٤١]، وان كنا نجد ابتداء من خلافة سليمان عودة إلى جعل تعيين القضاة أمراً عائداً إلى الخليفة[٢٤٢]، وهذا مما يزيد في سلطة القاضي ويجعله أكثر استقلالاً إذ لا يستطيع أمير المصر التأثير عليه في أحكامه، ولا يستطيع عزله، إذا كان تعيينه صادراً عن الخليفة إلاّ بأمر منه[٢٤٣].

من الطبيعي أن يعمد الخلفاء إلى تعيين قضاة في العاصمة، ولكن من المؤسف

---

(٢٣٤) خليفة، ج ١ ص ١٥٦.
(٢٣٥) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦.
(٢٣٦) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٧٣.
(٢٣٧) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٢٤، تهذيب، ج ٧ ص ٢٠٩.
(٢٣٨) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٢٤.
(٢٣٩) ابن طولون، الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام، ص ٢.
(٢٤٠) الكندي ص ٣٠٣، ٣١١.
(٢٤١) خليفة، ج ١ ص ٣٨٩، ٤٢٠، الكندي، ص ٣١٥، البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٢٠٥، وكيع، ج ١، ص ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٣٤.
(٢٤٢) خليفة، ج ١ ص ٣٨٩، الكندي، ٣٠٩، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٠.
(٢٤٣) الكندي، ص ٣٤٠، ٣٤١.

أن المصادر لا تشير إلى القضاة في مراكز الأجناد المختلفة، وان كانت هناك اشارات تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن الأمويين تابعوا النهج الذي طبقه عمر بن الخطاب، عندما عين قضاة في دمشق وحمص وفلسطين والأردن، إذ لا يعقل أن يعمد المتخاصمون إلى اللجوء إلى العاصمة لحل قضاياهم ومشكلاتهم، وقد جاء في تاريخ ابن عساكر أن عبادة بن نسي الكندي الأردني كان قاضي طبرية ولاّه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الأردن[٢٤٤]، بينما يذكر الذهبي أنه ولي قضاء الأردن لعبد الملك، ثم ولي نائباً لعمر بن عبد العزيز[٢٤٥]، وما يذكره الذهبي يتفق مع ما ورد في تاريخ خليفة بن خياط، أن والي الأردن في خلافة عمر بن عبد العزيز كان عبادة بن نسي[٢٤٦]، ثم إذا رأينا ابن طولون يذكر أن عبد الرحمن بن الحسحاس العذري من بني عامر بن عذره ولي قضاء دمشق[٢٤٧]، زمن عمر بن عبد العزيز ونرى خليفة يذكره والياً على دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز[٢٤٨]، جاز لنا أن نتساءل إذا كان عمر بن عبد العزيز قد أسند الولاية والقضاء لعبادة بن نسي وعبد الرحمن بن الحسحاس، لاسيما أننا نجد ذكرا لبلال ابن أبي الدرداء كقاض على دمشق في خلافة عبد الملك، وأنه كان كذلك أميراً على دمشق أي أنه جمع بين الولاية والقضاء[٢٤٩]، ونفهم من كتاب وجهه عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن القضاء كان يوكل إليهم بالإضافة إلى مهامهم الأخرى[٢٥٠].

احترم معاوية وخلفاء بني أمية منصب القضاء وأهله وحفوه بكثير من الاجلال والاكبار، فقد كان معاوية يهاب أبا الدرداء ويتأدب معه[٢٥١]. كما ولّى قاضيه فضالة ابن عبيد الغزو، فكان أمير الجيش، وكان الولاة يتقيدون بأوامره[٢٥٢]، وعندما خرج

---

(٢٤٤) تهذيب، ج٧ ص ٢١٧.
(٢٤٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٢٤.
(٢٤٦) خليفة، ج ٢ ص ٤٦٥.
(٢٤٧) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٧.
(٢٤٨) خليفة، ج ٢ ص ٤٦٥.
(٢٤٩) ابن طولون، ص ٤.
(٢٥٠) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٨، ٦٩.
(٢٥١) ابن طولون، ص ٢.
(٢٥٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص ١١٥.

معاوية إلى صفين استخلف فضالة بن عبيد[٢٥٣]، وعن سعيد بن عبد العزيز أن القاضي كان خليفة الأمير إذا غاب[٢٥٤]. وكانت منزلة أبي إدريس الخولاني عظيمة عند عبد الملك[٢٥٥]، فكان إذا نظر في المظالم ردّ إلى قاضيه أبي إدريس ما يقف منها على مشكل أو يحتاج إلى حكم منفذ، فكان أبو ادريس هو المباشر، وعبد الملك هو الآمر، أي أن أبا ادريس يعطي حكمه وعبد الملك يأمر بتنفيذ الحكم[٢٥٦]، كما جعل عبد الملك لأبي ادريس القصص والوعظ[٢٥٧]، وبقي قاضياً لعبد الملك حتى وفاته سنة ٨٠ هـ[٢٥٨]، فولي القضاء عبد الله بن عامر بن تميم الذي بقي في منصبه حتى خلافة الوليد، فكان على بناء مسجد دمشق[٢٥٩]، وكان رئيس أهل المسجد زمن الوليد ابن عبد الملك وبعده، لا يرى فيه بدعة إلاّ غيرّها[٢٦٠]. ونلاحظ في خلافة يزيد بن عبد الملك وجود قاضيين في دمشق سليمان بن حبيب والزهري، هذا على حياله وهذا على حياله[٢٦١]. ومما يثير الانتباه وجود ما يسمى قاضي الخلفاء، فقد ورد في تاريخ داريا أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء، كان قاضياً لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وليزيد وقضى لهشام أيضاً[٢٦٢]، بالرغم من أننا نقرأ عن قضاة آخرين في دمشق في عهد هؤلاء الخلفاء، وكذلك يرد في تاريخ دمشق لابن عساكر عن كلثوم بن زياد المحاربي، أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء وأنه أقام بالشام ثلاثين سنة يقضي باليمين مع الشاهد[٢٦٣]. وهذا ما يدفعنا للتساؤل فيما إذا كان هذا

---

(٢٥٣) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٢٣.

(٢٥٤) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٣، الذهبي، ج ٣ ص ١١٤، ١١٥.

(٢٥٥) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، ص ٥٦.

(٢٥٦) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٧٨.

(٢٥٧) الخولاني، تاريخ داريا، ص ٥٦، ١١٢.

(٢٥٨) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٤.

(٢٥٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٢٦٠) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٢.

(٢٦١) الخولاني، تاريخ داريا ص ٦٨، الذهبي، ج ٥ ص ٣٣١.

(٢٦٢) الخولاني، ص ٦٨.

(٢٦٣) تهذيب، ج ٦ ص ٢٤٩، ابن حنبل، المسند ج ٤، فقرة ٢٩٦٩ ــ ٢٩٧٠. كان القضاء باليمين مع الشاهد متبعا في حل قضايا الشراء والبيع وأشباهه، وهذا يدل على أن معظم القضايا الموكلة إلى القضاة كانت بالدرجة الأولى متعلقة بالمعاملات والأموال.

اللقب يعني رتبة رسمية أم كان هذا الخلع من الناس كدليل على علو كعبه في العلم والقضاء.

يتبين لنا من دراستنا لسير قضاة دمشق أنهم كلهم بلا استثناء كانوا من الفقهاء المحدثين ومن القرّاء والعبادة والزهاد. وكان الأوائل من الصحابة والبقية من التابعين، وكان القضاة يعلمون الناس قراءة القرآن بالإضافة إلى عملهم كقضاة، فكان أبو الدرداء مقرىء أهل دمشق وعالمهم[٢٦٤]، ورأى يزيد بن عبيده أبا إدريس زمن عبد الملك يتوسط حلق المسجد بدمشق، يقرؤون القرآن يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرّت حلقة بآية سجدة، بعثوا إليه يقرأ بها، وانصتوا له، ويسجد بهم جميعاً، وربما سجد بهم اثنتي عشرة سجدة، حتى إذا فرغوا قراءتهم قام يقص[٢٦٥]. واتخذ أهل الشام عبد الله بن عامر قاضي دمشق بعد أبي إدريس إماماً في قراءته[٢٦٦]، وكان محمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي قاضي دمشق في خلافة مروان بن محمد ممن يحضر الناس دراسته في جامع دمشق[٢٦٧].

وبينما نرى أن القضاة في الشام كان يعهد إليهم بامرة دمشق أو بالغزو، وان جهدهم الأكبر كان موزعا بين القضاء وتفقيه الناس وتدريسهم، نجد أن عدداً من القضاة في الولايات كان يجمع لهم القضاء والشرطة[٢٦٨]، فكان أول قاض في مصر جمع له القضاء والشرطة عابس بن سعيد المرادي من قبل الأمير مسلمة بن مخلد[٢٦٩]، وجمع عبد العزيز بن مروان ليونس بن عطية القضاء والشرطة سنة ٨٤ هـ[٢٧٠]. كذلك كان أول قاض قضى على المدينة في خلافة معاوية لمروان بن الحكم، عبد الله بن نوفل، وقد ضم منصب الشرطة مع القضاء، كما ضم مروان لمصعب بن عوف هذين المنصبين معا

---

(٢٦٤) ابن طولون، الثغر البسّام، ص ٢.
(٢٦٥) الذهبي، ج ٤، ص ٢٧٢.
(٢٦٦) ابن طولون، ص ٥.
(٢٦٧) المصدر السابق، ص ١١.
(٢٦٨) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٣٦، ٢٣٨.
(٢٦٩) المصدر السابق، ص ٢١٤، الكندي، ص ٣١١، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٨.
(٢٧٠) الكندي، ص ٣٢١.

سنة ٥٣ هـ[٢٧١]. وجمع خالد بن عبد الله القسري، الصلاة والقضاء والشرطة والأحداث، لبلال بن أبي بردة[٢٧٢]، أي أننا نجد حالات متعددة في الولايات عن جمع منصبي القضاء والشرطة لشخص واحد، بينما لا نجد مثالاً واحداً على ذلك في الشام، مما يشير إلى أن المهام التي كان يكلف بها القاضي في المركز كانت تختلف قليلاً عن تلك التي تعهد إلى القضاة في الولايات، وقد رأينا كذلك أن مهام صاحب الشرطة في دمشق اختلفت عن تلك الموكلة إليه في الأمصار الأخرى.

كان القاضي في الإسلام يتولى جميع الاختصاصات التي تعرض عليه، ويطلب منه فصل الخصومة فيها سواء أكان الخلاف كما نقول بلغة اليوم مدنياً أم جزائياً أم إدارياً أم متعلقاً بالأحوال الشخصية أم خلافا بين الجند أو غير ذلك، مما يمكن أن يعرض على القضاة[٢٧٣]، أي ليس في الإسلام ذلك التمييز بين ما هو مدني وما هو ديني، كما هو الأمر في الدولة البيزنطية حيث وجدت محاكم دينية وأخرى مدينة، وحيث لعب الأساقفة دوراً كبيراً في القضاء[٢٧٤].

نلاحظ أن القضاء في المسائل الجزائية كان من اختصاص الخلفاء والولاة في صدر الإسلام، وان كانت لا توجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصات القضائية لكل من الولاة والقضاة، فنجد مثلا أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أمر بالنظر في الجراح إذ كتب إلى قاضيه سليم بن عتر في مصر يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، فكان الرجل إذا أصيب فجرح أتى القاضي وأحضر بينة على الذي جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجرح قصته على عاقله الجارح، ويرفعها إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء، اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجم ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على

---

(٢٧١) وكيع، ج ١ ص ١١٤، ١١٨.

(٢٧٢) خليفة، ج ٢، ص ٥٣٥، الطبري، ج ٨، ص ٢٠٣.

(٢٧٣) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والإسلام، السلطة القضائية، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، بيروت، ص ٢٥٥.

(٢٧٤) Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization p.291.

ذلك[٢٧٥]، كذلك نقرأ في كتب التراث أن فلاناً تولى قضاء الأحداث، فقد جاء في أخبار وكيع أن عثمان عندما استخلف، أقرّ أبا موسى الأشعري على قضاء البصرة وأحداثها[٢٧٦]، وجاء في الطبري حين التحدث عن عمال عمر بن الخطاب أن عامل الكوفة عمار بن ياسر كان إليه الأحداث[٢٧٧]، وجمع خالد بن عبد الله القصري لبلال ابن أبي بردة القضاء والشرطة والأحداث[٢٧٨]، ويستنتج الأستاذ ظافر القاسمي بالاستناد إلى نص يورده وكيع متعلق بشريك قاضي المهدي مع المثال الذي يقدمه لسان العرب في حديث بني قريظة أن المراد من كلمة الأحداث، الجرائم الكبرى[٢٧٩]، فإذا كان النظر في المسائل الجزائية قد أوكل أمرها إلى القضاة في الأمصار أحياناً، فهل كان قاضي دمشق ينظر في هذه الأمور أم أنها تركت للخلفاء؟ أغلب الظن أن النظر في القضايا الجزائية بقي من اختصاص الخلفاء في الشام، فعندما قتل خالد بن المهاجر ومولاه نافع ابن أثال النصراني، أمر معاوية بضرب نافع مائة سوط وألزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم[٢٨٠]، وعندما طلب أسماء بن خارجة الفزاري إلى عبد الملك بعد أن فرغ من قتال مصعب أن يقيدهم من حميد بن حريث ابن بحدل الكلبي الذي كان قد أوقع ببني فزارة، أبى معتلا أنهم كانوا في فتنة، والفتنة كالجاهلية لاقود فيها وفرض لفزارة الديات من أعطيات قضاعة وحمير بالشام[٢٨١].

ليس بين أيدينا سجلات تساعدنا على معرفة نوع القضايا التي كان يتولى النظر فيها قضاة الشام، وان كان المرء يميل إلى الاعتقاد أن القاضي في الشام كالقاضي في الولايات الأخرى قد أضيفت إليه مهام أخرى بالإضافة إلى الفصل بين الخصوم، كاستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، بالنظر في أمر المحجور عليهم من المجانين

---

(٢٧٥) الكندي، ص ٣٠٩.
(٢٧٦) وكيع، ج ١، ص ٢٨٣.
(٢٧٧) الطبري، ج ٤ ص ١٤٥.
(٢٧٨) الطبري، ج ٨ ص ٢٠٣، خليفة، ج ٢، ص ٥٣٥.
(٢٧٩) ظافر القاسمي، السلطة القضائية، ص ٢٥٧.
(٢٨٠) ابن أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٣، ١٧٤.
(٢٨١) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣١٠.

واليتامى[٢٨٢]، والمفلسين وفي وصايا المسلمين وأوقافهم[٢٨٣]، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية[٢٨٤]، وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح، ليحصل له الوثوق بهم[٢٨٥]، وكان قاضي دمشق بلال بن أبي الدرداء الأنصاري لا يضرب شاهداً بزور بالسوط ولكن يوقفه بين عمد الدرج ويقول: «هذا شاهد زور فاعرفوه[٢٨٦]».

كان القاضي يجلس في المسجد[٢٨٧]، أو في داره[٢٨٨]، أو في السوق، وربما ركب وتجول في البلد فوقف حيث يطلب[٢٨٩]، وقد كره الشافعية القضاء في المسجد، وكان لرأيهم في آخر الأمر بعض الأثر في غيرهم من أصحاب المذاهب، فأخذ القضاة يتحولون إلى رحاب المساجد ثم إلى المدارس أو إلى دور خاصة بالقضاء[٢٩٠]. ونلاحظ في الواقع أن القضاة في أواخر العصر الأموي كانوا لا يقضون في المسجد، فقد ورد عند ابن طولون أن سالم بن عبد الله أبو عبيد المحاربي من قضاة دمشق كان يجلس عند باب البريد، وأن محمد بن عبد الله بن لبيد الذي ولي القضاء بعده في خلافة مروان بن محمد الجعدي كان يقعد عند باب الساعات[٢٩١].

كان للقاضي كاتب يعاونه ويقوم بنفس الوقت بمهمة المساعد والمشير، فقد كان مسلم بن مشكم كاتب أبي الدرداء من التابعين، روى عن أبي الدرداء ومعاوية وروى عنه عبد الله بن العلاء[٢٩٢]. وكان كلثوم بن زياد المحاربي كاتباً لسليمان بن حبيب

---

(٢٨٢) الكندي، ص ٣٢٥، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٤٠.

(٢٨٣) الكندي، ص ٤٣٦، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٧٤٠.

(٢٨٤) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٦، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٢٩٢، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٤٠.

(٢٨٥) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٤٠.

(٢٨٦) ابن طولون، ص ٣.

(٢٨٧) عبد الحي الكتاني، التراتيب الادارية والعمالات والصناعات... فاس ١٣٤٩ هـ، ص ٢٧٣.

(٢٨٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ١١٨.

(٢٨٩) المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٥.

(٢٩٠) منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، الطبعة الأولى، ص ٣٢٥.

(٢٩١) ابن طولون، ص ١٠، ١١.

(٢٩٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١٥٨.

المحاربي [٢٩٣]، وكان عمر بن يزيد النصري كاتب نمير بن أوس قاضي دمشق في عهد هشام بن عبد الملك[٢٩٤]. وقد تتوضح لنا أهمية الكاتب بالنسبة للقاضي من أن الحجاج عين سعيد بن جبير كاتباً ووزيراً للقاضي أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وأمره أن لا يقطع أمراً دونه[٢٩٥]، ولا شك أنه كان هناك كتاب مهمتهم تدوين القضايا وتسجيلها، إذ على القاضي أن يحسن الاستماع والتفكير والمقارنة والتحليل، واستحضار النصوص وغير ذلك من الأعمال العقلية ومن الانتباه، وعلى الكاتب أن يهتم بتدوين أقوال الطرفين والشهود والقاضي، ولابد للكاتب من أن يتمتع بصفات منها العدالة، كما يجب أن يكون عاقلاً وفقيها ليعلم صحة ما يكتب من فساده، وأن يكون نزيها بعيداً عن الطمع ليؤمن أن يرتشى فيحابي[٢٩٦]، وقد أورد فضالة بن المفضل أن كتاب يحيى ابن ميمون الذي ولي القضاء سنة خمس ومائة في مصر كانوا لا يكتبون قضية إلاّ برشوة، وأن يحيى كلم في ذلك فلم ينكره، ثم كلم مرة بعد مرة، فلم يعزل منهم أحداً من كتابته، ثم لم يلبث الخليفة هشام أن عزله[٢٩٧].

كان القضاء يعتبر من الأعمال الشاقة والخطرة لما فيها من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضي فيحكم على صاحب الحق فيظلمه، وهو مسؤول عنه وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى خطورة المسؤولية الملقاة على عاتق القاضي[٢٩٨]. وعندما استعمل أبو الدرداء على القضاء في دمشق، وأصبح الناس يهنئونه، قال: اتهنئوني بالقضاء وقد جعلت على رأس مهواة... ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدول، رغبة عنه وكراهية له[٢٩٩]. وعندما عزل عبد الملك أبا أدريس من القصص وأقرّه على القضاء قال: عزلوني عن رغبتي وتركوني في رهبتي[٣٠٠].

---

(٢٩٣) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، ص ٤٢.
(٢٩٤) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٣٧٣.
(٢٩٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١ ص ٦٢، البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٩.
(٢٩٦) الماوردي، أدب القاضي، ج ٢، ص ٥٨.
(٢٩٧) الكندي، ص ٣٤٠.
(٢٩٨) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٢٦، ٢٢٧.
(٢٩٩) ابن سعد، ج ٧، قسم ٢ ص ١١٧.
(٣٠٠) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، ص ٥٦.

وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجراً، لأن القضاء علم، والعلم لا يباع وإنما يتبرع به لوجه الله، ويقال أن الوليد ألحّ على قاضي دمشق، زرعة بن ثوب، حتى أعطاه مزرعة مع خدمها وآلتها وحلف أنها من صلب ماله. فقال: اقبلها منك وأشهدك أن ثلثا منها في سبيل الله والثلث الثاني ليتامى قومي ومساكينهم، والثلث الثالث لرجل صالح يقوم عليها ويؤدي فيها، ثم أنا أحب أن تأخذ مني ما أجريت علي من الرزق فانه في كوة البيت فخذه فرده في بيت المال، فقال له الوليد: ولم ذلك؟ قال: لا أحب أن آخذ على ما علمني الله أجراً[٣٠١]. وعن خالد بن يعفر أن عبد الله ابن يزيد بن خذامر لم يقبض على القضاء درهما ولا ديناراً[٣٠٢]. ذلك ما كان يفعله بعض القضاة، أما القاعدة فهو أن يكون للقاضي رزق يجري عليه من بيت المال ليفرغ من هم المعيشة إلى هم القضاء[٣٠٣]. وقد فرض عمر لشريح مائة درهم في الشهر[٣٠٤]. ويقال ان عليا رزق شريحا خمسمائة درهم[٣٠٥]، وعندما حاول زياد بن أبيه أن يزيده في رزقه أبى، فاقترح أن يوليه عملاً يجري عليه رزقه فقبل، فولاه بيت المال وأجرى عليه ألفاً[٣٠٦]، كما رزق ابن حجيرة الأكبر في مصر من القضاء مائتي دينار في السنة[٣٠٧]، وفي رفع الأصر وثيقة أموية جاء فيها وجدت في ديوان مروان بن محمد ورقة فيها، بسم الله الرحمن الرحيم: «من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال، فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين ومائة عشرين ديناراً، واكتبوا بذلك براءة. كتبت يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول[٣٠٨]»، أي أن رزق ذلك القاضي كان عشرة دنانير في الشهر، بينما نجد أن عمر بن عبد العزيز عندما عيّن أميراً على المدينة أمر رجلاً يقضي بين الناس،

---

(٣٠١) ابن طولون، ص ٧٠٦.
(٣٠٢) الكندي، ص ٣٣٩.
(٣٠٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٢٢٢.
(٣٠٤) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١١٦.
(٣٠٥) ابن سعد، ج ٦ ص ٩٥.
(٣٠٦) البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٢٠٥.
(٣٠٧) الكندي، ص ٣١٧، ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٥٣.
(٣٠٨) ظافر القاسمي، السلطة القضائية، ص ٢١٢.

فأجرى له في الشهر دينارين[٣٠٩]، مما يدل على أن أرزاق القضاة كانت تختلف وفقا للأمصار وأهميتها وللمهام التي توكل إلى القاضي.

إلى جانب هؤلاء الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم في إدارة شوؤن الدولة كان هناك بالطبع الخزان والجباة وعمال الصدقة والعرفاء وولاة المقاسم وغيرهم. وقد أخذ عدد الموظفين يزداد نتيجة للحاجة الملحة الحاصلة عن تطور المجتمع ومن تعقد الإدارة، وكلما ازدادت الدولة تعقيداً كلما ازداد عدد الموظفين، وتحددت صلاحياتهم، وهذا يتضح عندما نرى ذلك التدرج في ازدياد عدد الدواوين في الدولة، ابتداء من العهد الراشدي حتى نهاية العصر الأموي.

دواوين الدولة في الشام

أتيح للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين أكثر مما أتيح للراشدين، فاتسعت في عصرهم مرافق الدولة، واحتاجت إلى دواوين جديدة تنظم إدارتها وتساعد الخليفة في الواجبات المعقدة التي فرضها السلم، وهذه الدواوين عبارة عن دوائر رسمية أو وزارات حسب المفهوم الحديث[٣١٠]. وبينما يذكر المؤرخون العرب الديوان بشكل عام في خلافة عمر وعثمان وعلي، كذكرهم لديوان المدينة أو الكوفة أو البصرة، نلاحظ ابتداء من خلافة معاوية بن أبي سفيان تأسيس دواوين، لكل ديوان اختصاصاته[٣١١]، ولم تلبث أن تفرّعت عنها دواوين أخرى بازدياد الحاجة إلى الاختصاص والتنظيم الإداري، وهنا يجب أن نشير إلى أن الدواوين بمعنى السجلات كانت كلها حتى عهد خالد بن برمك صحفا مدرجة فجعلها دفاتر[٣١٢].

ومنذ أن أسس عمر بن الخطاب ديوانه في المدينة، وجد في الكوفة والبصرة والشام ومصر ديوانان، أحدهما بالعربية لاحصاء الناس وأعطياتهم، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية بالعراق، وبالرومية في الشام وبالقبطية في مصر[٣١٣].

---

(٣٠٩) وكيع، ج ١، ص ١٣٤.

(٣١٠) Levy. Op. Cit, P. 298.

(٣١١) الجهشياري، ص ٤٧.

(٣١٢) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ٢ ص ٩١.

(٣١٣) الجهشياري، ص ٣٨، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢، المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٨١.

ديوان الخراج

كان هذا الديوان من أهم دواوين الدولة، لأنه مصدر جميع الأموال للأقاليم والدولة، وقد استطاع معاوية بمعاونة زياد بن أبيه في المشرق، وسرجون بن منصور في الشام، وانثناس في مصر أن ينشيء وزارة حقيقية للمالية كما نفهمها بالوقت الحاضر[٣١٤]. ومعاوية هو أول من أمر بتسجيل أو حفظ سجلات بمقادير الجزية والخراج لكل منطقة أو اقليم، وميز تمييزاً واضحاً بين دخل أرض الخراج ودخل الصوافي، وأنشأ مبدأ وضع الصوافي عموما تحت سلطة البيت الحاكم[٣١٥].

اتبع خلفاء بني أمية القاعدة التي سار عليها الفرس، بتسجيل كل ما يرد في ديوان الخراج[٣١٦]، فكان يسجل في ديوان الخراج كل ما يرد من أموال الفيء، كما كان يسجل في دواوين الخراج مساحات الأراضي الخراجية، وكذلك من في كل بلد من أهل الذمة، وما استقر عليهم في عقد الجزية، فان كانت مختلفة باليسار والاعسار سمّوا في الديوان مع ذكر عددهم ليختبر حال يسارهم واعسارهم، وان لم تختلف في اليسار والاعسار جاز الاقتصار على ذكر عددهم، ووجب مراعاتهم في كل عام لتثبيت من بلغ واسقاط من دخل في الإسلام أو من مات[٣١٧]. كما أن كل أرض خراجية إذا تحوّلت إلى عشرية، يثبت ذلك في الديوان حتى يسقط الخراج عن تلك الأراضي وعن أهل قراهم[٣١٨].

عندما تولى معاوية الخلافة كان العرف السائد أن ينفق على أمور الولاية معظم ما اجتبي منها، وكانت بعض الولايات تتمتع باستقلال ذاتي كامل من الناحية المالية، ولم يكن أمام معاوية من دخل يعتمد عليه سوى دخل الشام، ولذلك أمر أن تسهم

---

(٣١٤) Irving Washington, Lives of The Successors of Mohammet London, 1859 Vol. II P.487.

(٣١٥) D.Dennette, Poll Tax in Early Islam, Cambridge, 1950, P.64.

(٣١٦) الجهشياري، ص ٣.

(٣١٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٨.

(٣١٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٩٦.

كل ولاية بارسال الفائض إلى بيت المال بدمشق[٣١٩]، وكان ديوان الخراج في العراق من أهم الدواوين في الدولة لما كان يدرّه سواد العراق من أموال خراجية اعتمدت عليها الخلافة الأموية في توطيد سلطانها، فقد قال معاوية: «مالـلشام رجال العراق وأموالها[٣٢٠]» وأبى عبد الملك الا الخروج لقتال مصعب بن الزبير بنفسه قائلاً: «الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاده[٣٢١]».

كان في دمشق ديوان مركزي للخراج، كما وجدت دواوين اقليمية، مقرّها حواضر الولايات، وكان الديوان المركزي في دمشق يضم على الأرجح دواوين خراج قنسرين وحمص وفلسطين والأردن كذلك، يذكر الجهشياري أنه كان يكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن أثال النصراني وأن مهاجر بن عبد الرحمن بن خالد قتل ابن أثال عندما خرج من ديوانه في دمشق[٣٢٢]. وكان يتولى شؤون الخراج في الشام كما هو الأمر في العراق ومصر وخراسان موظفون من أبناء المنطقة يتقنون لغتها بالإضافة إلى المامهم بالعربية، ويشرف على أولئك الموظفين رئيس يعرف بكاتب الخراج أو صاحب الخراج، ويتمتع بمنزلة عالية لدى الخليفة والأمراء، وقد اشتهر في الشام سرجون بن منصور الرومي الذي كان مسؤولا عن دواوين الخراج كلها بالشام[٣٢٣]. ثم أصبح ابنه منصور المتولي لأمر الخراج[٣٢٤]، حتى نقل سليمان بن سعد كاتب الرسائل الديوان إلى العربية، وذلك عندما رأى عبد الملك بن مروان من منصور توانيا، وولاه عبد الملك جميع دواوين الشام ولم يزل سليمان بن سعد على ذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز[٣٢٥]،

---

(٣١٩) ابن الأعثم، فتوح، ج ٤ ص ١٨١، الطبري، ج ٥ ص ٤٠٣، ٥٠٩، ج ٦، ص ٤٣، ٤٤، ١٠٥، ابن عبد الحكم، فتوح ص ١٠٢، المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٤٥، ساويرس، ج ٥، ص ١٨٩.

(٣٢٠) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ٦٣.

(٣٢١) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٥.

(٣٢٢) الجهشياري، ص ٢٨، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣٢٣) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٢٧٦، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٨٢.

(٣٢٤) الجهشياري، ص ٣١، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٨٢

(٣٢٥) الصولي، أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ، ص ١٩٣.

وبتعريب دواوين الخراج أصبح بامكان الخليفة أن يشرف اشرافاً مباشراً على هذا الديوان الهام[٣٢٦] . وتميز هشام بن عبد الملك بتشدده أكثر من غيره بأمر الأموال ووجوه صرفه ودقة دواوينه ، إذ يذكر عبد الله بن علي ، « جمعت بين دواوين بني مروان ، فلم أرَ ديوانا أصحّ ولا أصلح من ديوان هشام في أمر الخاصة والعامة والسلطان[٣٢٧] » ، وكان هشام يراقب بنفسه هذه الدواوين ومجالات صرف الأعطيات ، فيذكر غسان بن عبد الحميد : « لم يكن أحد من بني مروان أشدّ نظراً في أمر أصحابه ودواوينه ولا أشدّ مبالغة في الفحص عنهم من هشام[٣٢٨] » .

ديوان الصدقات

وهوالديوان الذي كان يتم فيه تسجيل ما يدفعه المسلمون من زكاة ظاهرة ، كالزكاة عن الزرع والثمار والمواشي[٣٢٩] ، وما يؤخذ من مال تجارتهم وهو ربع العشر من المسلمين[٣٣٠] ، واسم هذا الديوان مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين[٣٣١] ... » . ويقول القلقشندي : « إذا صح ما ذكره القضاعي في تاريخه » عيون المعارف « بأن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي أموال الصدقات ، أمكننا القول بأن هذا الديوان قد وضع في زمنه[٣٣٢] » .

وبما أن أرض الشام كان منها ما هو خراجي ، ومنها ما هو عشري ، كان لا بد من تفصيل ما كان منه عشراً في ديوان العشر ، وما كان منه خراجا في ديوان الخراج[٣٣٣] ، إذ أن الأراضي التي رفضها أهلها فأقطعت للعرب والتي أسلم عليها أهلها وأرض الموات

---

(٣٢٦) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٢١ .
(٣٢٧) الطبري ، ج ٧ ص ٢٠٣ .
(٣٢٨) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٠٣ .
(٣٢٩) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١١٣ .
(٣٣٠) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦ .
(٣٣١) سورة التوبة ، آية ٦١ .
(٣٣٢) القلقشندي ، ج ١ ، ص ٩١ .
(٣٣٣) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٧ .

التي أحياها المسلمون اعتبرت أراضي عشرية[٣٣٤]، وكان يسجل في الديوان نوع الرزق وحال سقيه بسيح أو في الدالية لاختلاف حكمه ليستوفى بموجبه[٣٣٥]، ولا بد لجمع مال الصدقة من عمال، إذ لا يجوز أن يتولاها عمال الخراج، ولعمال الصدقة رزقهم من مال الصدقة على أن لا يستغرق أكثر الصدقة[٣٣٦]، وقد عين الرسول منذ البدء عمالاً على الصدقات على كل قبيلة أو قبيلتين عامل[٣٣٧]، وكانت الزكاة تؤخذ في خلافة الراشدين من المسلمين المسجلين في العطاء[٣٣٨]، وكذلك فعل معاوية الذي سنّ أخذ الزكاة من الأعطية[٣٣٩]. أما بالنسبة للبقية فكان عامل الصدقة يحمل كتاب أمير المؤمنين وعهده إلى القبيلة التي سيجبي صدقاتها، ويضرب الفسطاط، ويدخل أفراد القبيلة لدفع صدقاتهم[٣٤٠]. بينما يرد عند ابن عساكر أنه كان لكل قوم عريف منهم يجمع الصدقات من أموالهم[٣٤١]، وأغلب الظن أن الرواية الأولى تنطبق على القبائل في البادية بينما تنطبق الثانية على المقيمين في المدن والحاضرة.

ديوان الجند

هو نفس الديوان الذي أسسه عمر بن الخطاب لتحديد العطاء لجميع العرب والجند الإسلامي[٣٤٢]، وكان يعرف باسم الديوان، لأنه لم يكن يوجد غيره، ولم يحتاجوا إلى تمييزه بلفظ آخر يضاف إليه، وقد وجدت دواوين للجند منذ البدء في مراكز الاقاليم كذلك، وكان المقاتلة في الشام يسجلون حسب مكان اقامتهم، فكان لكل جند مقاتلته الذين يأخذون أعطياتهم من مراكز أجنادهم، ويتم تسجيل المقاتلة

(٣٣٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١ ص ٤٥.
(٣٣٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٧.
(٣٣٦) أبو يوسف، الخراج، ٩٥.
(٣٣٧) البلاذري، أنساب، ج ١ ص ٥٣٠.
(٣٣٨) أبو عبيد، الأموال، ص ٣٥٩.
(٣٣٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٧.
(٣٤٠) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣١٠، الأغاني، ج ١٢، ص ٢٠١.
(٣٤١) تهذيب، ج ٦، ص ١١٧.
(٣٤٢) مولوي حسيني، الادارة الإسلامية، ص ١٦٨، منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص ٢٩٢.

وفقا لأنسابهم، وان كانوا عجما لا يجتمعون على نسب ألحقوا أحياناً بديوان قبيلة من القبائل يختارونها، فعندما دون عمر الدواوين في الشام، سأل بلال عمر أن يجعل ديوانه مع أبي رويحة الخثعمي، وقال: فاني غير مفارقه أبدا، فقد آخى رسول الله (صلعم) بيني وبينه، فضم ديوان الحبشة إلى خثعم، فلم يبق بالشام حبشي إلاّ صار ديوانه مع خثعم[٣٤٣]. كما أن الخليفة عمر كان يحاول قدر الامكان عند التسجيل أن لا يفرق بين الولد وأبيه، فقد أبلى السمط بن الأسود الكندي بالشام، وكان ابنه شرحبيل بن السمط بالكوفة، فحوّل عمر شرحبيل إلى الشام فنزل حمص مع أبيه[٣٤٤]، وبما أن التسجيل في الديوان يعني للشخص الاقامة في البلد الذي به ديوانه، فان الأمويين كانوا لا يفرضون لبكر بن وائل و لتميم بديوان الشام مخافة استقرارها في الشام[٣٤٥]، ولذا نجد عبد الملك يرفض نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني من ديوان الجند في الكوفة إلى ديوان الجند في الشام خوفا من أن يكثر المنتسبون إلى بكر وتميم فيها[٣٤٦]. وعندما يتوفى الشخص المسجل في ديوان العطاء، كانت وفاته تسجل ازاء اسمه وذلك لرفع العطاء عنه أو تحويله إلى ورثته، فقد روى يزيد بن عبد ربه، قال: قرأت في ديوان العطاء، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة، ومات عبد الأعلى بن عدي سنة أربع ومائة[٣٤٧]. وهكذا نرى أن الدواوين كانت لها أهميتها في التكوين الاجتماعي، إذ أنها تحوي السجلات الرسمية التي حفظ العرب بها أنسابهم بالإضافة إلى أهميتها في مدنا بمعلومات عن التنظيم المالي للمقاتلة.

لابد أن نشير أثناء الكلام عن ديوان الجند في الشام إلى ديوان الذراري بالرغم

---

(٣٤٣) البلاذري، أنساب، ج ١ ص ١٩٢.

(٣٤٤) البلاذري، فتوح، ص ١٤٣.

(٣٤٥) جمال محمد داود محمد جودة، العرب والأرض في العراق في صدر الإسلام، رسالة ماجستير منسوخة، باشراف الدكتور عبد العزيز الدوري، ١٩٧٧، ص ١٧٤، البلاذري، أنساب، القسم الثاني من نسخة استانبول، السليمانية، رقم ٥٩٧، ٥٩٨، ص ٨٩.

(٣٤٦) احسان صدقي العمد، الحجاج بن يوسف الثقفي، حياته وآراؤه السياسية، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣، ص ٤١٣، البلاذري، أنساب، ج ٧، ص ٨٩.

(٣٤٧) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٤٣. وقد توفي يزيد بن عبد ربه سنة ٢٢٤ هـ، وهذا دليل على أن السجلات القديمة كانت لا تزال موجودة في أوائل القرن الثالث الهجري.

من أن هذا الاسم لايرد صراحة إلا فيما يتعلق بالعراق في عهد زياد بن أبيه وعبيد الله ابن زياد، ففي خطبة عبيد الله حين جاءه نبأ موت يزيد بن معاوية يقول: «لقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم إلاّ أربعون ألفاً ولا في ديوان عيالاتكم إلاّ سبعون ألفاً، ولقد أحصي إلى اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتل وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون ألفاً[٣٤٨]». أي يمكن القول ان ديوان العطاء الذي أوجده عمر بن الخطاب انقسم إلى ديوان للجند وديوان للذراري، فكان ديوان الجند يضم أسماء المقاتلة ومقدار أعطياتهم ومكان مكاتبهم، ويسجل في ديوان الذراري الأفراد الذين يحق لهم العطاء من عائلة المقاتل، لأننا نستطيع أن نستنتج من النص الذي أورده البلاذري أن السفيانيين لم يفرضوا العطاء لجميع ذراري المقاتلة، فقد ذكر عبيد الله أن عدد المقاتلة في البصرة كانوا ثمانين ألفاً وذراريهم مائة وعشرين ألفاً وأن مقاتلة الكوفة كانوا ستين ألفاً وذراريهم ثمانين ألفاً[٣٤٩]، ومن المتوقع أن يكون لهؤلاء المقاتلة ذراري أكثر من هذه الأعداد، مما يؤكد أن التسجيل اقتصر على عيل أو اثنين، أي أن الأمر اختلف في عهد السفيانيين عما كان متبعا في العهد الراشدي عندما فرض عمر للنساء والذرية في العطاء[٣٥٠].

وبعد أن كان عمر قد فرض مائة درهم للأولاد سواء الذكر أو الانثى بعد الفطام[٣٥١]، لم يلبث أن قرر فرض العطاء للمولود حال ولادته عندما تبين له أن الكثيرين يفطمون أولادهم قبل الموعد المحدد كي يستحقوا العطاء مبكرا[٣٥٢]، ويذكر البلاذري أن معاوية طبق نظم عمر بن الخطاب في العطاء، إلاّ أنه فرض للفطيم دون المولود، فلما تولى عبد الملك قطع ذلك كله إلاّ عمّن شاء[٣٥٣]، فيذكر أبو مخنف أنه لما جاء أبو الجهم بن كنانة برأس قطري بن الفجاءة الخارجي إلى عبد الملك، «ألحق

---

(٣٤٨) البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٩٠، ج ٤، قسم ٢ ص ١١٦، فتوح ص ٣٤٤، ٣٤٥.
(٣٤٩) المصدر السابق، ج ٤، قسم ١، ص ١٩٠، ج ٤، قسم ٢ ص ١١٦.
(٣٥٠) الطبري، ج ٣، ص ٦١٤، ٦١٥، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٧١.
(٣٥١) البلاذري، فتوح، ص ٤٤٥، الطبري، ج ٣، ص ٦١٥، ج ٤ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.
(٣٥٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٣، قسم ١ ص ٢١٥، البلاذري، فتوح، ص ٤٤٥.
(٣٥٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٤٥.

في ألفين وأعطي فطيماً[٣٥٤] » . ولكن يبدو أن وضع أهل الشام كان أفضل من وضع أهل العراق فيما يتعلق بعطاء الذراري، إذ أننا نجد عبد الملك يعرض على أهل العراق مقابل تراجعهم عن موقفهم مع ابن الأشعث بالإضافة إلى عزل الحجاج، أن يجري عليهم أعطياتهم وأعطيات ذراريهم كما تجري على أهل الشام[٣٥٥]، وفي هذا دلالة على أن عطاء الذرية بقي مستمراً في الشام في خلافة عبد الملك، وان بقي المبدأ الذي سار عليه معاوية في فرض العطاء للفطيم دون المولود هو المطبق، لأننا نرى عمر بن عبد العزيز يعود فيفرض لكل منفوس ديناراً[٣٥٦] . ويورد الطبري رواية عن المجاشعي يذكر أن عمر بن عبد العزيز طلب منه أن يقرع بين ذراري الرجال الذين في العطايا، فمن أصابته القرعة جعله في المائة، ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين[٣٥٧]، أي أنه جعل العطاء لكل الذرية ولكن بنسب مختلفة، ومن يلتحق بعد ذلك بديوان الجند يعطى عطاء المقاتلة، ويبدو أن ولاة بني أمية كانوا أحياناً يفرضون لابن أربع عشرة سنة في القتال، فمنع عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى العمال أن يفرضوا لابن أربع عشرة سنة في القتال وأن يفرضوا لابن خمس عشرة سنة[٣٥٨] .

استمر عطاء الذرية أيام هشام بن عبد الملك، إلاّ أنه اتبع سياسة السفيانيين في عدم الحاق كل الذرية في العطاء، فقد بيّن نصر بن سيار ليحيى بن حصين موقف الخليفة منه « وزيد في عطائك، وفرض لأهل بيتك وبلغت الدرجة الرفيعة[٣٥٩] » . ووفد علباء بن منظور الليثي على هشام بن عبد الملك فأنشده شعرا، فأمر له بخمسمائة درهم وألحق له عيلا في العطاء[٣٦٠]، وعندما دخل مروان بن محمد دمشق أمر للمقاتلة

---

(٣٥٤) الطبري، ج ٦، ص ٣١٠ .
(٣٥٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٤٧، مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٤ .
(٣٥٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢٥٥ .
(٣٥٧) الطبري، ج ٦ ص ٥٧٠ .
(٣٥٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢٥٨ .
(٣٥٩) الطبري، ج ٧، ص ١٧٥ .
(٣٦٠) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠٦ .

بالعطاء وعدّهم وعدّ عيالهم[٣٦١]، وكان لا بد من القيام باحصاء بين الحين والآخر، لأن الناس في كثير من الأحيان كانوا يكتمون موتاهم، وهذا ما دفع عمر بن عبد العزيز إلى أن يرسل كتابا يُقرأ على الناس: «انه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم، فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل منفوس نفرض له[٣٦٢]». وكان لا بد من ارسال موظفين خاصين بين الفترة والأخرى من المركز إلى الأمصار للتحقيق من عدم تلاعب العرفاء الذين كان يوكل إليهم ابلاغ الديوان عن كل تغيير يحدث ضمن القبيلة[٣٦٣].

ديوان الرسائل

كان لهذا الديوان كما كان للدواوين السابقة فروع في الولايات، ولكن العلاقة بين هذا الديوان وفروعه كشفت عن تفوق الديوان المركزي وعظمة نشاطه واتساعه، يقول القلقشندي عن هذا الديوان الذي سمّاه ديوان الانشاء: «لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية تقاصرا عن التشبيه بديوان الخلافة، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة، ولذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوافر الدواعي على نقله ولا تنصرف الهمم إلى تدوينه[٣٦٤]».

ولعل ديوان الرسائل هو أول ديوان وضع في الإسلام، ذلك أن النبي (صلعم) استعمل كتّابا يكتبون عنه إلى أمرائه وأصحاب سراياه، وإلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والامانات إلى غير ذلك، فهؤلاء وان لم يطلق عليهم اسم الديوان، فقد كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان

---

(٣٦١) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٥.

(٣٦٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٥٥.

(٣٦٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٥٤، مصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، ص ١٥٤، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٧٤.

(٣٦٤) القلقشندي، ج ١ ص ٣٨.

الرسائل[٣٦٥]. فلما جاء العصر الأموي برز اسم ديوان الرسائل كديوان له اختصاصاته، يتولى المكاتبات في الدولة، ولا سيما اصدار النشرات والرسائل التي تشتمل على التعليمات الصادرة للولاة وللرعايا عامة[٣٦٦]. وكان الخلفاء في العهد الراشدي والأموي يختارون لمنصب «صاحب ديوان الرسائل» من يثقون بأمانتهم واخلاصهم من خاصتهم أو من عظماء القبائل، فلما فسد اللسان وصارت الكتابة صناعة أصبحت هذه المهمة تسند إلى من يحسن الكتابة[٣٦٧]. وكانت المراسلات السياسية والإدارية في عهد الخلفاء الراشدين قصيرة جداً ومقصورة على ما يراد منها، واستمر الأمر كذلك في الدولة الأموية إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك «فجوّد القراطيس وجلل الخطوط وفخّم المكاتبات[٣٦٨]». وكان يأمر أن تكون كتبه والكتب إليه خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض، وجرى الأمر على سنة الوليد بن عبد الملك، باستثناء فترة خلافة عمر بن العزيز ويزيد بن الوليد، إلى أن صار الأمر إلى مروان ابن محمد، وكتب له عبد الحميد بن يحيى فأطال الكتب وأطنب بها[٣٦٩].

ديوان الخاتم

من الدواوين التي ظهرت في العصر الأموي، ديوان الخاتم، وكان معاوية أول من اتخذ ديوان خاتم[٣٧٠]، لضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق الهامة[٣٧١]، وأنشأ الخليفة معاوية هذا الديوان بعد أن اكتشف تزويراً في أمر مالي بعث به إلى والي العراق، فصار ديوان الخاتم يتولى تسجيل الأوامر الصادرة عن الخلافة، ثم ختم الأصل والرسالة، ولم يكن المراد من الختم أن يوضع في أدنى الرسالة، وإنما كانت الرسالة

---

(٣٦٥) المصدر السابق، ج ١ ص ٩١.
(٣٦٦) مولوى حسني، الادارة العربية، ص ١٦٨.
(٣٦٧) ابن خلدون، المقدمة، ج ١ ص ٧٨٨.
(٣٧٨) القلشندى، ج ٦ ص ٣٩١.
(٣٦٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٩١.
(٣٧٠) الطبري، ج ٥ ص ٣٣٠، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٦.
(٣٧١) مولوى حسيني، الادارة العربية، ص ١٦٩.

تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر الذي يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة، ويترك حتى يجف، فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك، إذ لا سبيل إلى فتحها إلا بتمزيق الخاتم[٣٧٢]. وكان لكل خليفة نقش خاص لخاتمه، فكان نقش خاتم معاوية «لا قوة إلاّ بالله»، ونقش خاتم عبد الملك بن مروان «آمنت بالله مخلصاً»، أما خاتم الوليد فكان نقشه «ياوليد أنت ميت» ونقش خاتم عمر بن عبد العزيز «لكل عمل ثواب»، ونقش خاتم هشام بن عبد الملك «الحكم للحكيم[٣٧٣]».

لم يقتصر حفظ النسخ الإدارية وختم الأوامر قبل اصدارها على الحكومة المركزية وحدها، وإنما اتبع الولاة نفس الطريقة، وان كانت الروايات التي بين أيدينا متعلقة بالعراق فقط، فقد اعتاد زياد أن يحفظ نسخا عن جميع أوامره، وعن المدائني أن زياد ابن أبي سفيان كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله[٣٧٤]. وكان خلفاء بني أمية لا يولّون ديوان الخاتم إلا أوثق الناس عندهم[٣٧٥].

وكان ديوان الخاتم يعتبر من الدواوين الهامة في الدولة، واستمر هذا الديوان إلى أواسط الدولة العباسية[٣٧٦]، ومما يشير إلى أهميته، أن كل أمر من الخليفة بمنح مال أو اقطاع يدور في الدواوين حتى ينتهي إلى ديوان الخاتم، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار، فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الخاتم، فلم يبق إلا قبضها، فتوفي سليمان قبل أن يقبضها، فرفض عمر بن عبد العزيز أن يدفعها له، وقال: «عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحد[٣٧٧]».

---

(٣٧٢) منير العجلاني، ص ٣٠٢.

(٣٧٣) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ٢٦٢ ــ ٢٧٢.

(٣٧٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٥٠، أنساب الأشراف، ج ٤ قسم ٢، ص ١٧٦، وقد كان للأكاسرة أربعة خواتيم، فكان على خاتم الحرب والشرط «الاناة» وعلى خاتم الخراج والعمارة «التأييد»، وعلى خاتم البريد «الوحاء» (العجلة والاسراع)، وعلى خاتم المظالم «العدل» الجهشياري، ص ٢.

(٣٧٥) الصولي، أدب الكاتب، ص ١٤١.

(٣٧٦) ابن طباطبا، ص ٧٩.

(٣٧٧) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٤٩.

ديوان البريد

إلى جانب ديوان الخاتم ظهر ديوان البريد في العصر الأموي، أنشأه معاوية بن أبي سفيان عندما استقرّت له الخلافة لكي تسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، ونظراً لاعتماده على دهاقين من الفرس وأهل أعمال الروم في تنظيم البريد[٣٧٨]، اختلف في كلمة البريد، فيرى بعض المستشرقين أن كلمة بريد مأخوذة من اللاتينية فيريدوس VEREDUS وهو حصان البريد[٣٧٩]، بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة فارسية معرّبة وأصلها الفارسي، «بريده دم[٣٨٠]» ومعناها مقصوص الذنب، لأن الفرس كانوا «يستخدمون في نقل البريد دوابا مقصوصة الذنب تمييزا لها عن غيرها من الدواب، وقيل ان البريد كلمة عربية مشتقة من بَرَد، بمعنى أرسل، وكان البريد يطلق كذلك على الرسول[٣٨١]. ولما كانت مهمة البريد الأولى وصول الأخبار بسرعة كانت أهم معالمه انشاء محطات للبريد[٣٨٢] تصل المركز بكل الولايات المرتبطة به، إذ أن الدولة الإسلامية في عهد خلفاء بني أمية انقسمت إلى ولايات ارتبط بعضها بالمركز مباشرة، وارتبط القسم الآخر بأمراء تلك الولايات، فمعاوية مثلا جمع لزياد المصرين أي الكوفة والبصرة[٣٨٣] وما كان يتبعهما من ولايات المشرق، وسار على هذا النظام أكثر خلفاء بني أمية حتى كان عدد الأمراء الذين تولوا العراقين اثني عشر أميراً[٣٨٤]، وكانت سلطة الحجاج تمتد من فم الرقة إلى خجند بخراسان وإلى السند والهند[٣٨٥]. فأمير العراقين كان مسؤولا عن سرعة وصول الأخبار إليه من كل ولايات المشرق[٣٨٦]، بينما كان ديوان

---

(٣٧٨) القلقشندي، ج ١٤ ص ٣٦٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩.

(٣٧٩) LEVY. P. 299, E. I. ART. BARID.

(٣٨٠) القلقشندي، ج ١٤ ص ٣٦٧، لسان العرب، طبعة ١٣٨٨ هـ، مادة البريد.

(٣٨١) المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٦٧، لسان العرب، مادة البريد.

(٣٨٢) محطات البريد كانت تعرف باسم السكة، والسكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط، وكان يرتب في كل سكة بغال أو خيول، لسان العرب، مادة البريد.

(٣٨٣) الطبري، ج ٥ ص ٢٣٤، ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٤٨، أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج ١ ص ١٨٥.

(٣٨٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٤٨.

(٣٨٥) البلخي، كتاب البدء والتاريخ، باريز ١٩١٩م، ج ٢ ص ٢٧.

(٣٨٦) خليفة، ج ١ ص ٣١٩، ٤١٥، ٤٤٣، ج ٢، ص ٥٣٨.

البريد المركزي مسؤولا عن محطات البريد التي تصل الشام بالبصرة والكوفة والجزيرة وأرمينيا ومصر والحجاز، وكانت محطات البريد تبعد الواحدة عن الأخرى فرسخين في إيران وأربعة فراسخ في الولايات الغربية، وذلك لاستخدامهم العدّائين في ايران والخيول والجمال في الولايات الغربية[٣٨٧].

وكانت توجد في هذه المحطات الدواب التي تستخدم في البريد، من البغال، والخيل والابل، حسب طبيعة الطرق التي تمر بها، ذلك فضلاً عن وجود أماكن للراحة، وتوفير أسباب الحصول على الماء والطعام والعلف لدواب البريد، كما كان من الضروري عمارة الطرق، ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي قد اجتازها، وقد وصلت إلينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان اكتشفت بالقرب من بيت المقدس، وتشير إلى أوامره بصنع الأميال وبعمارة أربع طرق تخرج من إيلياء ومن دمشق[٣٨٨]. ويبدو أن الوليد ساهم في بناء الأميال وعلى نطاق واسع مما دفع القلقشندي إلى القول بأن الوليد هو أول من بنى الأميال[٣٨٩].

استخدم عمال الدولة البريد للرحلات السريعة[٣٩٠]، وفي أيام الطوارىء كان البريد يستخدم في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة، كما حدث أثناء ثورة ابن الأشعث، عندما جهز عبد الملك الجند على البريد فكانوا يصلون من مائة، ومن خمسين وأقل من ذلك أو أكثر[٣٩١]. كما أرسل هشام بن عبد الملك المدد لسعيد الحرشي إلى أرمينيا ومنطقة اللّان على أربعين دابة من دواب البريد فكان يبعث إليه كل يوم أربعين رجلاً[٣٩٢]. أما الوليد بن عبد الملك فكان يحمل عليه الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق[٣٩٣].

---

(٣٨٧) E.I. Art., Barid.

(٣٨٨) Van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jerusalem, t.I. p. 20. Repertoir Chronologique d'epigraphic Arab, t.I. PP. 13, 16.

(٣٨٩) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج ١ ص ١٣٦، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء، ص ٤٣.

(٣٩٠) القلقشندي، صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧، E.I. Art., Barid.

(٣٩١) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٣٦.

(٣٩٢) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٨، الطبري، ج ٧ ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥ ص ١٥٩.

(٣٩٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤ ص ٣٦٧، E.I. Art., Barid.

خطا نظام البريد خطوات واسعة في خدمة النظام الإداري الأموي، ودعم سلطانه بما يتفق وطبيعة اللامركزية التي سار عليها هذا النظام، إلاّ أن البريد حقق أهميته الكبرى في ظل الحكم العباسي حيث أصبح عبارة عن دائرة استخبارات[٣٩٤]، وأنشئت المحطات على مراحل مناسبة على كل الطرق المؤدية للعاصمة، كما أنشأ المهدي طريقاً جديداً مزوداً بالمحطات من اليمن إلى مكة ومن ثم إلى بغداد، وكان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته، في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث[٣٩٥]. وبدأ اختلال نظام البريد في عهد سيطرة البويهيين الذين رأوا في منع وصول الأخبار إلى الخلفاء وسيلة لاحكام سيطرتهم عليهم[٣٩٦]، وألغى السلطان السلجوقي الب أرسلان (١٠٦٣ــ١٠٧٢م/٤٥٦ــ٤٦٥هـ) نظام البريد في الولايات الشرقية بالرغم من معارضة وزيره المشهور نظام الملك، الذي كان يرى في هذه المؤسسة وسيلة قيمة فعالة لحفظ النظام والأمن في الدولة[٣٩٧].

ديوان المستغلات

بالإضافة إلى هذه الدواوين التي ذكرتها ظهرت دواوين أخرى بالشام فقط، كديوان المستغلات الذي يرد اسمه لأول مرة في خلافة الوليد بن عبد الملك[٣٩٨]، وكان على المستغلات نفيع بن ذؤيب مولى الوليد، واسمه كان مكتوباً في لوح في سوق السرّاجين[٣٩٩] بدمشق، وديوان المستغلات هو الديوان الذي تسجل فيه أجور أراضي الدولة وأملاك الحكومة[٤٠٠]، كذلك نقرأ في تاريخ دمشق لابن عساكر عن تأسيس ديوان للزّمنى، إذ يذكر أن اسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي كان على ديوان الزمنى

---

(٣٩٤) Levy, P. 300.

(٣٩٥) الطبري، ج٧، ص ٩٦.

(٣٩٦) E.I. Art., Barid.

(٣٩٧) E.I. Art., Barid.

(٣٩٨) الطبري، ج٦ ص ١٨١.

(٣٩٩) الجهشياري، ص ٤٧.

(٤٠٠) Levy, p. 299.

بدمشق، وهو من أهلها، وأن الوليد قالٌ له لمّا ولاه: «لأدعن الزّمن أحبّ إلى أهله من الصحيح[٤٠١]». وأغلب الظن أن هذا الديوان قد ظهر في الشام فقط، إذ أن اهتمام الوليد كان مركزاً على الشام. فقد ذكر القلقشندي بأن الوليد هو أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى، وأول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون[٤٠٢]، كذلك يشار في عهد سليمان بن عبد الملك إلى ديوان النفقات[٤٠٣]. وإذا افترضنا تأثر الأمويين بالفرس الذين كان لهم ديوانان، ديوان الخراج وديوان النفقات، وأن ديوان النفقات يسجل كل ماينفق في جيش أو في غيره[٤٠٤]، فانه يمكننا القول ان هذا الديوان كان يقوم بتسجيل كلّ ماينفق على مرافق الدولة من أموال صادرة عن بيت المال في دمشق، بدلاً من أن تكون هذه المسؤولية ملقاة على عاتق ديوان واحد هو ديوان الخراج، ويبدو أن هذا الديوان كان مركزيا، وقد بقي كذلك في العصر العباسي، عندما كانت أكبر مهماته القيام بنفقات دار الخلافة وحاجاتها ونفقات الدواوين المركزية[٤٠٥]، بينما كانت دواوين الخراج في الولايات تقوم مقام ديوان النفقات فيها بالإضافة إلى تسجيلها لما يجبى من خراج وضرائب أخرى، فكانت تستوفي من تلك الأموال النفقات الراتبة وأعطيات الجند وترسل الباقي إلى العاصمة[٤٠٦].

إذا كانت هذه الدواوين كلها ترد أسماؤها في المركز فان هنالك بعض الدواوين التي نسمع عنها في مصر مثلاً كديوان الأحباس أو الأوقاف الذي أوجده توبة بن نمر، والذي يقول الكندي عنه أنه أصبح ديواناً عظيماً سنة ١١٨ هـ[٤٠٧]. كما ظهر في

---

(٤٠١) تهذيب، ج ٢ ص ٤٥٢.

(٤٠٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ٤٣٢.

(٤٠٣) خليفة، ج ١، ص ٤٣٢، الجهشياري ص ٧٢، وكان يكتب لمروان على النفقات زياد بن أبي الورد الأشجعي واسمه مكتوب على ميناء صور وعكا.

(٤٠٤) الجهشياري، ص ٣.

(٤٠٥) الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٥، ٢٧.

(٤٠٦) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٥، ص ١٩٣، ١٩٤، التنوخي، الفرج بعد الشدة، الطبعة الأولى، القاهرة، ج ١، ص ٥١، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، القاهرة ١٣٤٢ هـ، ص ٤٠.

(٤٠٧) الكندي، ص ٣٤٦.

العراق في العصر الأموي ما يسمى بدار الاستخراج[٤٠٨]، وهي الدار التي كانت تصادر فيها أموال الموظفين الذي يختلسون أموال الجبايات ولا يؤدونها للدولة، وكذلك الدهاقين الذين يقصرون في الجبايات المقررة عليهم، كما صودرت فيها أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه بمساعدتهم الثائرين[٤٠٩]، واستمر هذا الجهاز حتى زمن الدولة العباسية حيث تحول إلى ديوان كبير عرف باسم ديوان المصادرين[٤١٠]، ولما كان أهل الشام أهل طاعة وولاء فلم يظهر مثل هذا الديوان في الشام، فاننا لا نقرأ عن مصادرات للأموال فيها في هذه الفترة من تاريخنا.

---

(٤٠٨) الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر، بيروت، ج ٢ ص ٤٢.

(٤٠٩) البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٩، ٨١، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٥٩، ابن قتيبة، المعارف، ص ١٩٣، المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ج ٢ ص ٢٥٥.

(٤١٠) حسام السامرائي، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية، ١٩٧١، ص ٢٨٦.

obeikandl.com